الخرطوم أيام زمان

ذكريات وخواطر عن الخرطوم

أحمد عبد الوهاب محمد سعيد

مساعد الملحق التجاري الأمريكي سابقاً



منشورات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الخرطوم أيام زمان

الخرطوم ايام زمان

ذكريات وخواطر عن الخرطوم

تأليــــــف

أحمد عبد الوهاب محمد سعيد

مساعد الملحق التجاري الأمريكي سابقاً

الخرطوم — ٢٠٠٤م

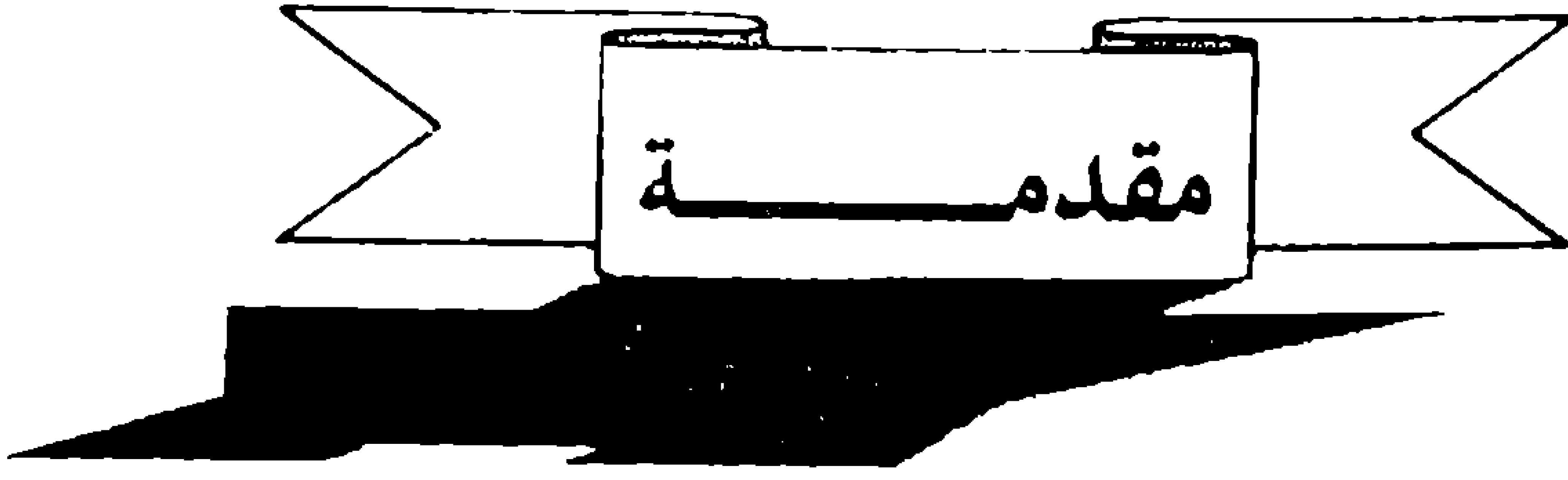
الإهداء

إلى موصيتي...

أجلس يا أبتي في يميني
وأمسح بيديك جبيني
وأتل الحمد تبارك ويس
أثبت يا أبتي يا طور السين
وأصبر فالموت ثبات ويقين

سامية

الفهرس



هذه المطبوعة التي بين يديك – أيها القــارئ الكريـم– هــي مجموعة ذكريات عن ناس وأحداث أثروا وتأثروا بالحياة العامة فــي الخرطوم القديمة، وهي تجربة ذاتية للكاتب الذي رأى أنه من المفيد أن يعممها. وهذه الذكريات هي لمحات عن التاريخ في المدة مــن سـنة ١٩٣٥م عندما وُلد الكاتب بالخرطوم وسـنة ١٩٨٥م عندمـا تنـازل بالمعاش، ومع هذا فلا توثق للتاريخ وليس ذلك هو الهدف منها.

فالباب الأول من الكتاب يحوي ذكريات الكاتب أيام زمان فــي الخرطوم ، وقد حرص أن لا يتطرق للمواضيع السياسية مع أهميتـها في هذه المدة، ولكنه ركز على الجوانب الحياتيـة الاجتماعيـة. ولأن الموضوع مأخوذ من الذاكرة فهو ليس متصــل ولا مكتمـل ولكنـه شذرات يأمل الكاتب أن تعطي فكرة ولو مصغرة عن الخرطوم أيــام زمان وهو بهذه المذكرات يستجيب لرجآت من بعض الأصدقاء الذين سألوه أن يحدثهم عن أيام زمان لعلها ترضي بعض ما يصبون إليه.

والباب الثاني عبارة عن خواطر عن الإنجليز فــي الســودان حيث أنصب التركيز فيها على الإنجليز في الخرطوم فقد عمل الكـاتب لمدة تقارب العشرة سنوات في إحدى الشركات الإنجليزية بالإضافة لما عايشه من وجود الإنجليز في السودان قبل جلائهم من الســودان فــي سنة ١٩٥٥م.

أما الباب الأخير فهو أيضاً خواطر عن سنين الأمريكان وهو يشير إلى الثلاثة وعشرين عاماً التي قضاها موظفاً بالسفارة الأمريكية بالخرطوم حيث تنازل بالمعاش وكان في وظيفة كبير مساعدي الملحق التجاري.

إن الخواطر التي كتبها عن الإنجليز والأمريكان تتناول تجربته الشخصية وفي بعض الحالات كان لابد من التطرق لمواقف سياسية بدون الخروج عن الخط العام للكتاب الملتزم بالحياد والموضوعية.

وفي الختام أقدم شكري لابن أخي إبراهيم عبد الحليم الذي قلم بتنسيق وطباعة مسودة الكتاب.

الرجاء الخالص أن ينال هذا العمل رضاء القارئ ، والله من وراء القصد.

أحمد عبد الوهاب محمد

يونيو ٢٠٠٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

الخرطوم أيام زمان

الفصل الأول : العودة للخرطوم:

كان ذلك في أواخر عام ١٩٤٢م والوقت قبل غروب الشمس بقليل عندما توقف قطار كريمة بمحطة الخرطوم وكان المكان يموج بالواصلين والمستقبلين وأصحاب عربات الأجرة وهم يصيحون أم درمان – الديوم – بري وكانت تفوح روائح التمر والدقيق والسمن والبلح الرطب، ووسط ذلك الزخم ظهر الوالد وهو يبتسم ويلوح بيده للأسرة العائدة من البلد وأسرعنا إليه في شوق دافق وهو يضمنا إليه في حنان حميم ثم مد يده مصافحا الوالدة التي كانت ترتدي ثوب أبو قجيجة الأصلي والغدو القمر بوبا تلمع تحت الثوب ولم يمض وقت طويل حتى تفرق الجميع في أحياء الخرطوم القديمة.

كنا نسكن في حي السجانة القديمة وموقعها الآن في تقاطع شارع المك نمر والذي كان يسمى شارع الدفتردار مع شارع الجمهورية والذي كان اسمه شارع ونجت ، والدفتردار كما هو معروف من تاريخ التركية هو الذي أرسله محمد علي باشا لينتقم من ملك الجعليين المك نمر الذي أعدم صهره إسماعيل باشا عندما دخل

السودان غازيا في سنة ١٨٢٠ وطلب من المك نمر أن يعد له جيشا من العبيد وشحنات من الذهب وريش النعام ولكن المك نمر لم يعجبه صلف الغازي فكان أن قتله. ولما جاء الدفتردار إلى المتمة كان المك نمر قد انسحب منها إلى تخوم كسلا وحدود الحبشة ريثما يجهز جيشه لهجوم مضاد على جيش الترك فما كان من التركي إلا أن أحرق المتمة ولهذا فإن الحكم الوطني في السودان أعاد للمك نمر هيبته ولو بصورة رمزية في نزع اسم الدفتردار من الشارع ووضع اسم المك نمر بدلا عنه.

والسجانة هذا هو اسم مكان لمنازل حرس السجون وقد تم نقله إلى غرب المدينة في شارع علي عبد اللطيف والذي كان يعرف بشارع الملك فؤاد ثم بعد ذلك إلى المكان المعروف الآن بحي السجانة.

ثم انتقلت الأسرة إلى ديم التعائشة الواقع جنوب محطة السكة حديد وكانت الديوم القديمة تقع شمال مقابر فاروق وجنوب سوق نمرة ٢ وكان لكل قبيلة ديم فهناك ديم التعائشة وهو أكبر الأحياء وكان عمدة الديوم العمدة عمر كويس من قبيلة التعائشة وكان لكل ديم شيخ يتبع لذلك العمدة فكان هناك ديم الجوامعة وديم تقلي وديم النوبة وديم برتي ... ولعل الإنجليز قد أبعدوا قبائل غرب السودان من أم درمان عاصمة المهدية التي كانت ترتكز على تلك القبائل، وشجعوا القبائل ذات الأصول العربية للاستيطان بأم درمان كالرباطاب والركابية والهاشماب والعمراب ...الخ ومع ذلك احتفظت أم درمان

بأحياء لبعض قيادات جيوش المهدية مثل أبو عنجة وود نوباوي وود البصير وأبو كدوك وود البنا ... الخ.

الخرطوم سميت على خرطوم الفيل المعروف حيث أن النيلين الأبيض والأزرق بعد اقترانهما في المقرن ثم يندمجان في مجرى واحد هو نهر النيل العظيم ويشبه النيل ومن خلفه النهران الأزرق والأبيض خرطوم الفيل وهناك روايات أخرى لاسم الخرطوم ليس هذا مكان الحديث عنها.

وحسب ما ذكر ج إس آر دنكان في كتابه "طريق السودان للاستقلال"[(١)] "فإن الخرطوم قبل ١٦٩١ كانت ممرا للعابرين للنهر ومكانا للصيادين، ولكن جزيرة توتي كان لها وجود قبل ذلك التاريخ" وقد كانت مركزا لقبيلة المحس الذين يزعمون أنهم من سلالة الخزرج الذين ناصروا الرسول صلى الله عليه وسلم عندما هاجر للمدينة وأن نسبهم ينتهي بالصحابي الجليل أبي بن كعب.

والحقيقة أن المحس قد قدموا من أرض الحجر في منطقة النوبة بشمال السودان ونسبة لضيق الأراضي الزراعية ووعورة المنطقة فإنهم كانوا من أول النازحين إلى الخرطوم واستقروا بتوتي والخرطوم بحري والعيلفون والجريفات والكلاكلات وغيرها، وقد اشتهروا بنشر خلاوي القرآن وزراعة التمور. وفي سنة ١٦٩١ قام الفكي أرباب العقائد وهو من شيوخ المحس بإنشاء خلوة وبنى مسجدا

[(١)] الناشر وليم بلاك وود" طبعة ١٩٥٧، ص١٢٠.

في المكان الموجود الآن والمعروف بمسجد أرباب العقائد بشارع الجمهورية .

وبعد الفتح التركي للسودان في ١٨٢١ قام محمد عثمان باشا باختيار الخرطوم لرئاسة حكومته وقام ببناء مكاتب الحكومة ومنازل المسئولين بالطين. وقد خلفه في الحكم خورشيد بَاشا الذي أدخل البناء بالطوب الأحمر وقام ببناء مباني المديرية "رئاسة مجلس الوزراء الآن" وقام بإعادة بناء المسجد العتيق "مسجد أرباب العقائد"، ثم جاء بعده عبد اللطيف باشا الذي قام ببناء الصراية ومكاتب الحكومة والتي من بينها وزارة المالية ووزارة الداخلية.

كانت الخرطوم أيام زمان وما زالت تحد من الناحية الشمالية والشرقية والغربية بالنيلين الأزرق والأبيض بينما كانت حدودها الجنوبية تنتهي في ضواحي قروية مثل الكلاكلات في الجنوب الغربي والجريفات في الجنوب الشرقي وكانت معسكرات الجيش المصري ملاصقة للسكة حديد من الناحية الجنوبية وهي المعروفة الآن بالدفاع المدني أو الحريقة بينما كانت سكنات الجيش الإنجليزي شرق خط السكة حديد المتجه لكوبري الخرطوم بحري وهي المعروفة الآن بداخليات الباركس بالقرب من وزارة التربية وما جاورها.

أما في الجهة الشرقية من الخرطوم حيث المطار الآن فكانت غابة السنط ولكن كان هناك مطار صغير لطائرات الداكوتة والـدف وهو المعروف الآن بالمطار الحربي وكان الإنجليز يلعبون في غابة

السنط البولو والجولف. وفي أقصى الغرب مكان المنطقة الصناعية الآن كانت أحياء قديمة مثل حي سلامة الباشا وحي العصارات والقوز والرميلة.

وكان هناك (خلاء) ميدان فسيح ممتد من حي العصارات في الغرب إلى غابة السنط في الشرق وكان هذا الفراغ يفصل بين الديوم والسكة حديد بعرض كيلو ونصف الكيلومتر تقريبا وكان هناك خور يتوسط هذا الخلاء من الشرق إلى الغرب وهذا الخور موجود منه جزء كبير بالمنطقة الصناعية بالخرطوم والذي يعرف الآن بشارع الخور، كما كان هناك خط حديدي ضيق يوازي هذا الخور وأقرب إلى السكة حديد، وكان هذا الخط يجري عليه قطار الليل المشهور في ذلك الزمان ويتكون من عربات من الحديد يجرها جمل وتوضع فوقه جرادل الصحة المملوءة بفضلات المنازل والمصالح الحكومية الواقعة شمال السكة حديد حيث يتم تفريغها وغسلها في النيل الأبيض حيث ينتهي الخط. لقد كانت الخدمات الصحية في أسوأ حالاتها في ذلك الزمان قبل أن يستبدلها الحكم الوطني بشبكة المجاري في أوائل الستينات من القرن الماضي.

كانت الخرطوم عموم وهذا هو اسم المدينة الواقع شمال السكة حديد مقسمة إلى ثلاثة أحياء رئيسية وهي الحي الإنجليزي ويقع شرق شارع المك نمر حتى الشارع المؤدي لكبري بحري ويليه الحي الأفرنجي ويقع بين شارع المك نمر وشارع القصر والذي كان يسمى

في ذلك العصر بشارع فكتوريا. وكان يسكن هذا الحي جاليات يونانية "الأغاريق" وإيطالية ويهودية كما كانت هناك أسر شامية من سوريا ولبنان وبعض العوائل الأرمنية. أما الجزء الواقع غرب شارع القصر فكان به السوق العربي وتتخلله منازل أسر سودانية عريقة مثل أسرة الزيبق وآل كشة وآل الفوال على سبيل المثال لا الحصر.

أما إخواننا الأقباط فإنهم من أعرق النحل التي استقرت بالخرطوم وكانت لهم حيشان كبيرة ومباني قديمة مثل حوش بولص شرق شارع القصر وحوش سليم مكان الكمبوني الآن وعمارة آل نخلة الواقعة في تقاطع شارع الحرية مع شارع الجامعة ولهم منازل كثيرة في أحياء الخرطوم المختلفة.

وكان لكل من تلك الجاليات شهرة في ميادين العمل العام فكان الأغاريق يعملون بالتجارة العمومية "البقالات" وكانت لهم حانات في وسط الخرطوم كلورد بايرون وشناكا وخباز في شارع الجمهورية، وكانت تلك الحانات "البارات" هي الجزء الداخلي من مقاهي يقدم فيها الشاي والقهوة التركية والنسكفي والمشروبات المعدنية كالليمونادة والكيتي كولا. كما كان الأغاريق أول من أسس الورش الصغيرة ودربوا كثيرا من الأولاد في الحرف المختلفة وأشهر هذه الورش كانت ورشة "بنى" جنوب سوق الذهب الآن ثم انتقلوا إلى المنطقة الصناعية التي أنشئت فيما بعد. ومن أشهر السيدات اليونانيات مدام كترينا والتي كان لها متجر ضيق في شارع أبو سن بالخرطوم

شرق وكانت تبيع العيش والفول والزيتون والجبنة والمخلل والسجائر، وكانت تمزح مع الزبائن عن الكورة وفريق النيل والأهلي وانتقلت بمتجرها في أوائل الستينات إلى الشارع المشهور باسم شارع كترينا الذي يقع شرق حديقة القرشي بالخرطوم جنوب وينتهي غرب مسجد شروني.

أما الشوام فعملوا في تجارة المنسوجات والأصواف وأشهرهم آل قرنفلي وآل المراشي كما أدخل آل كافوري من لبنان مزارع الأبقار وإنتاج الألبان المشهورة بكافوري، وكانت عربات توزيع لبن كافوري البيضاء المرسوم عليها بقرة سوداء توزع زجاجات اللبن المبستر في أحياء الخرطوم المختلفة. أما الأسر اليهودية فكانت تعمل بتجارة المحاصيل كالفرد قاعون وحبيب كوهين واليرث أشكنازي وآل دويك وآل العيني ولهم مقبرة قديمة موجودة حتى الآن في المنطقة الصناعية بالخرطوم "محطة شاطوط"، كما كان لهم معبد بشارع القصر قام في مكانه الآن مبنى البنك الأهلي السوداني. كما كانت بالخرطوم بعض الأسر الأرمنية كازمرليان وبودريان، ومعلوم أن هناك كثيرا من الأسر التركية التي انصهرت في المجتمع السوداني منذ زمن بعيد.

كان بالخرطوم القديمة بعض المعالم الاستعمارية والتي تمت إزالتها بعد الاستقلال كتمثال الجنرال غردون أمام بوابة القصر الجنوبية ،وكان التمثال البرونزي لآخر حكام التركية الذي قتله جيش المهدي عند فتح الخرطوم ، كان التمثال مثبت على ظهر جمل ووجهه متجه إلى الجنوب الغربي حيث الضاحية التي كان يأوي إليها

والمعروفة حينئذ بشجرة غردون وفي الجانب الشمالي من القصر وأمام وزارة المالية كان يقبع تمثال كتشنر القائد الإنجليزي الذي فتح السودان سنة ١٨٩٩م وكان التمثال على صهوة حصان من البرونز أيضا وقد تمت إزالتهما وأرسلت التماثيل إلى إنجلترا وتم تغيير أسماء الشوارع من شارع غردون إلى شارع الجامعة وشارع كتشنر إلى شارع النيل.

وفي أواخر أيام الإنجليز قامت امتدادات جديدة جنوب السكة حديد حيث تم تخطيط الديوم الجديدة بشوارع وميادين وذلك في غرب الخرطوم وجنوبه وهي الآن الديوم الغربية (الحلة الجديدة) والديوم الشرقية جنوب مقابر فاروق وظهرت أحياء حديثة في مكان الديوم القديمة وهي الأحياء المعروفة الآن بالخرطوم واحد والخرطوم ٢ والخرطوم ثلاثة.

لم يحدث أي تغيير في الخرطوم عموم شمال السكة حديد وظلت الأحياء القديمة داخل الخرطوم عموم كحي المقرن وحي السكة حديد وحي الخرطوم الجديد شرق وغرب شارع الحرية وفي هذا الحي كان ولا يزال منزل عمدة الخرطوم العمدة ود كرم الله ومن قبله العمدة المرضي، وكلاهما من قبيلة المحس التي كانت قد استوطنت جزيرة توتي والجريفات وحلة خوجلي وحلة حمد والخوجلاب والعيلفون وغيرها من ضواحي الخرطوم كما أسلفنا. وكان العمد يتبعون إداريا لمأمور المركز الذي يرأسه المفتش ثم مدير المديرية، ومعلوم أن المفتش ومدير المديرية كانا من الإنجليز.

الفصل الثاني : آخر سنوات الحرب:

في تمام الساعة ١١ والدقيقة ١١ من شهر ١١ سنة ١٩٤٥ تم إعلان انتهاء الحرب العالمية الثانية وكـان لتلك الحـرب آثارها وتداعياتها في السودان.

وأذكر أننا بعد أيام من رجوعنا للخرطوم لفت نظـري تلك المجرات الضيقة العميقة وسط الأحياء وقد علمت مـن والـدي أنها الخنادق التي كانوا يلجأون إليها عندما تبدأ صفارة الإنـذار محـذرة الأهالي باحتمال غارة جوية من الطليان المتمركزيـن فـي أثيوبيا وأسمرة على الخرطوم بعد أن ألقوا قنابل على كسـلا وبورتسـودان وكانت تلك الصفارة متقطعة توت ...توت...توت وبصـوت مزعج فيهرع الأهالي إلى الخنادق ثم يظلون مختبئن في وجل وترقب حتى يسمعوا الصفـارة الأخـرى وهـي صفـارة متصلة طويلة تـــــوت فيخرجوا من الخنادق ويستأنفوا نشاطهم في حذر ورهبة وكانت الغارة في الأسبوع مرة أو مرتين وفـي إحدى الغارات على الخرطوم سقطت قنبلة في النيل الأزرق شرق الكـبري وفي هذا تقول المغنية :

الله لي الطيارة جاتنا هجوم.
الله لي كشفت على الخرطوم.
الله لي كتلت حمار كتلوم ست اللبن.
الله لي الطيارة جات بدري

الله لي كشفت على الكبري.

الله لي المدفع الجبلي.

الله لي خل البحر يغلي.

وكان الإنجليز قد أنشأوا طليعة الجيش السوداني وسموها قوة دفاع السودان وقد تم التعيين من جميع مديريات السودان وكان لكل مديرية علامة بلون مختلف من ريش النعام مثبتة في عمامة الجندي وتم تدريبهم على عجل في مركز تعليم بأم درمان وكانت لهم مخازن للذخيرة في جنوب الخرطوم بالقرب من رئاسة سكر كنانة الآن وكانت معروفة بكيلو خمسة وكان يتم إرسالهم إلى الجبهة الشرقية في جبال أسمرة كرن ومصوع والقلابات أو إلى الجبهة الغربية في برقة وطرابلس بليبيا حيث يصطرع الجيش الإنجليزي مع الجيش الألماني.

وكانت محطة الخرطوم تزدحم عند قيام القطارات المتجهة إلى الجبهة بالجنود والآباء والأمهات والأخوان ويردد الجميع أغنية عائشة الفلاتية:

يجو عايدين يا الله

يجو عايدين إن شاء الله منصورين يا الله

يجو عايدين الفتحو كرن بايتين يا الله.

يجو عايدين بالمدفع والمكسيم يا الله

وعندما يتحرك القطار يزغرد النسوة وهن يبكين ويصيح الرجال الله أكبر أبشروا بالخير والجنود يلوحون مودعين وهم ينشدون:

دايم دايم الله

دايم كريم الله

دايم دايم الله

دايم لطيف الله

وأذكر في أحد تلك الأيام وكنا نلعب كرة الشراب بأحد ميادين الديم فرأيت ومعي بعض الأخوة جسما صغيرا يلمع وهو في حجم حجر البطارية لونه أسود وبه مسامير حمراء ملفوف عليها سلك أصفر وتوقف اللعب وأسرعنا إلى كبارنا وجاءوا على استعجال ثم ركب أحدهم عجلته وانطلق نحو معسكرات الجيش الإنجليزي حيث كان يعمل ذلك الشخص وبعد مدة حضر بعض الجنود الإنجليز على عربة مكشوفة صغيرة ثم قاموا بمعالجة ذلك الجسم وحملوه معهم، وعلمنا فيما بعد أنه كان لغما لم يتفجر والحمد الله.

ومن آثار الحرب على السودان أن ابتدع الإنجليز نظام التموين لتوزيع السلع على الأهالي وكان لكل أسرة بطاقة تحمل رقم المنزل واسم رب الأسرة وعدد أفراد الأسرة ووزعت السلع على المتاجر فكان الحاج منصور شاشوق موزع السكر والحاج قرني

موزع الزيت والجاز والحاج الصادق للذرة والخليفة ميرغني محجوب للقماش... الخ، وكانت الكميات محدودة حسب عدد كل أسرة وإذا لـــم تكتفي الأسرة بما قرره مدير الخرطوم الإنجليزي فكانت الأسرة تلتجئ للسوق الأسود والذي كان يعرف "بالبرشوت" حيث يتضـــاعف ســـعر السلعة عدة مرات كما كان تجار البرشوت يتعرضون لأحكام قاسية إذا وقعوا في أيدي الشرطة.

كانت لمبات الشوارع القليلة في الخرطوم عموم تطفأ بـــالليل وتطلى لمبات العربات على قلتها باللون الأزرق أو الأخضر كل ذلـــك تحسبا من إسقاط قنابل على العاصمة حتى انتهت الحرب فـــي شـــهر نوفمبر سنة ١٩٤٥م.

الفصل الثالث : الحياة الاجتماعية

كانت الرابطة القبلية قوية بين الأهالي كما كانت الصلاة الإنسانية بين القبائل في اتساع وكانت الطرق الصوفية توحد بين القبائل فنجد القادري في الجزيرة أخاً للقادري في كدباس والختمي في النهود أخ للختمي في طوكر مع أنهم ينتمون لقبائل شتى وكان زعماء العشائر يقومون بأعمال إدارية عظيمة من حفظ للأمن وجمع العوائد والمكوث وحل النزاعات بين الأسر وبين القبائل. لقد كان هناك نسيج اجتماعي قوي ورابطة أخوية حميمة بين شيوخ الطرق الصوفية وزعماء العشائر، وكانت الطرق الصوفية تلتقي في سرادق الأفراح والأتراح والمناسبات الدينية كالمولد النبوي الشريف والأعياد وكانت تنظم قبل بداية رمضان أو العيد الزفة السنوية التي تنتظم فيها الطرق الصوفية وأصحاب الحرف الصغيرة وحيران الخلاوي والجمهور فيجوبون شوارع الخرطوم تتقدمهم فرق الموسيقى التي تمتزج ألحانها مع دقات الطبول والأناشيد ثم تطلق عدة طلقات من المدفع القابع أمام المديرية إيذاناً بابتداء رمضان أو حلول العيد السعيد.

لم يكن التعليم الحديث متيسراً فكان الأولاد دون البنات يذهبون لحفظ القرآن في الخلاوي وكانت الخلاوي تتبع للطرق الصوفية المنتشرة في السودان، فخلوة الفكي عبد الرحمن الضرير والتي تعلمت فيها الحروف الهجائية كانت تتبع للختمية وكانت خلوة الفكي العبيد

تتبع للطريقة القادرية، وكانت خلوة الفكي أزرق تتبع للأنصار، وكانت خلوة الفكي محمد أحمد تتبع للطريقة العزمية وهكذا.

وكنا ونحن صغار نهتم إذا حدثت وفاة في الحي لأن ذلك يعني بأننا موعودون بوجبة دسمة في اليوم الخامس للوفاة، والمعروف بيوم الصدقة فنحضر من الخلوة في طابور ثم نقرأ ما تيسر من القرآن، وبعد تناول الصدقة نقوم بالدعاء للميت ثم نعود للخلوة شبعانين مبسوطين، ذلك لأن الصدقة كانت من اللحم والأرز والرغيف وهو ما لم يكن متوفراً في كثير من البيوت آنذاك.

ولم يكن الآباء يميلون إلى إرسال أولادهم إلى المدرسة الوحيدة في الديوم لأنهم يريدون لأبنائهم حفظ القرآن والالتحاق بالمعهد العلمي الابتدائي بجامع الخرطوم ثم الانتقال لمعهد أم درمان العلمي لينل الشهادة العالمية وأن تحقق الأمل يسافر الطالب المتفوق للجامع الأزهر بمصر.

ومع الزمن تحول الأمر إلى الاهتمام بالمدرسة وكانت هناك مدرسة أولية واحدة في الديوم وأخرى في الخرطوم غرب كما أن المدرسة المتوسطة الوحيدة بالخرطوم والتي أقيم برج البركة الآن في مكانها فكان يتنافس للدخول عليها تلاميذ المدارس الأولية من الديم والخرطوم غرب والجريفات والبراري وشرق النيل فكان الفاقد التربوي أضعاف ما يمكن استيعابه في تلك المدرسة ولذلك لجأ الكثيرون إلى الورش والتدريب على الحرف المختلفة.

كانت الخدمات الصحية محدودة فكانت هناك نقطة غيار واحدة في الخرطوم جنوب ولم تكن شبكات المياه العذبة ممتدة في الديوم فكان الأهالي يشربون من الآبار السطحية حيث يقوم السقاة مفردها سقى "بنشل" الماء من الآبار ويحملونها في القربة أو جوز من الصفائح على أكتافهم ويملئون الأزيار في كل المنازل نظير ملاليم معدودة وكان بعض أولئك السقاة من أخواننا من اليمن وقام بعضهم بفتح متاجر صغيرة في الأحياء. أما الأحياء الحديثة في الخرطوم عموم شمال السكة حديد فكانت تتمتع بخدمات المياه العذبة عبر الشبكة الممتدة من محطة بري الوحيدة في ذلك الزمان.

كانت الحياة الثقافية ممركزة في المدارس حيث المسارح المدرسية والأناشيد في يوم الآباء وكنا نردد نشيد المؤتمر "إلى العلا" و"صه يا كنار" كما كان هناك نادي الخريجين بالخرطوم الذي قام في مكانه الآن البنك السوداني الفرنسي بشارع القصر ونادي الكشافة بديم سلمان ثم نادي العمال فيما بعد فكانت هذه الأندية تموج بالليالي الشعرية والمناسبات الوطنية وقدمت مسرحيات على خشبة نادي الخريجين ونادي الكشافة مثل بامسيكا وخليل عزة وخراب سوبا...الخ. كما كان بعض الوعاظ المصريين يحضرون في شهر رمضان لإلقاء مواعظ في المساجد القليلة والزوايا الدينية وفي النادي المصري بشارع فكتوريا (القصر). وقد أنشأنا في الديوم الشرقية نادي الديوم الشرقية ونادي ديم التعائشة وكانت وما زالت تقوم بأنشطة ثقافية واجتماعية

ورياضية عظيمة من داخل تلك الأندية. وأذكر أننا قدمنا روايات على خشبة مسرح الديوم الشرقية منها "بوليس قيصر" و"النعمان بن المنذر"، و"محاكمة خير السيد"وغيرها.

واستطعنا بها وبمعاونة السلطات أن نقضي على ظاهرة الأنادي التي شجعتها السلطة الاستعمارية لنقيم مكانها النوادي. كما كان بالخرطوم عدد من المقاهي كقهوة الزئبق مكان سوق الذهب وقهوة العيلفون غرب نادي العمال وغيرها. فكان الناس يذهبون في الأمسيات يستمعون للراديو أو الفونوغراف وهم يشربون الشاي والحلبة ثم يتوجه الكثيرون منهم لصلاة العشاء في الجامع الكبير والذي لم يكن بالخرطوم في ذلك الزمان مسجد غيره.

المسجد العتيق المعروف الآن بمسجد أرباب العقائد كان قد تهدم منذ زمن بعيد ولم يتم إعادة بناؤه إلا بمنحة من الملك فاروق ملك مصر في ذلك الزمان ولهذا اشتهر بمسجد فاروق وفي الحقيقة فقد تم إكمال بنائه وافتتاحه بعد زوال الملكية من مصر في سنة ١٩٥٢م، وأم المصلين فيه لأول مرة الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف في حكومة الثورة المصرية، وبهذه المناسبة تجدر الإشارة إلى أن الملك فاروق كان قد تبرع أيضاً ببناء سور لمقابر المسلمين جنوب الخرطوم وهي المعروفة الآن بمقابر فاروق حيث دفن فيه عدد من المصريين الرسميين والجنود التابعين للجيش المصري. أما في

الديوم فكان هناك مسجداً واحداً أيضاً هو جامع كامل الأحمدي والموجود حتى الآن غرب نادي القوات المسلحة بالخرطوم ٢ .

كان بالخرطوم وما زالت حتى الآن سبعة كنائس هي كنيسة الأقباط الأرثوذكس في تقاطع شارع علي عبد اللطيف مع شارع النيل وكنيسة الروم الكاثوليك في تقاطع شارع الملك نمر مع شارع النيل والكنيسة الإنجيلية جنوب غرب مسجد أرباب العقائد وكنيسة الأرمن والكنيسة اليونانية في شرق الخرطوم وكنيسة كمبوني في شارع القصر "شارع فكتوريا سابقاً". ولعل أهم الكنائس هي التي كانت ملاصقة لصراي الحاكم العام "القصر الجمهوري الآن" وكانت للمسيحيين البروتستانت وأهمهم الإنجليز وكانت له مسلة عالية مثبت عليها ساعات من الجهات الأربعة كالساعات الموجودة على مبنى بلدية أم درمان الآن وكانت تعلن الوقت كل ربع ساعة بموسيقى مطابقة لموسيقى ساعة بق بن في لندن فكان الناس يسمعونها في أطراف الخرطوم فيعرفون الزمن وكان لها باب يفتح داخل جنينة السراية من الناحية الشمالية كما كان كاهنها يقيم بمنزل داخل القصر من الناحية الشمالية الشرقية وكان يقضي معظم وقته في جنوب السودان فقد كان رئيساً لإرسالية السودان الداخلية وهي منظمة تبشيرية إنجليزية وقد تم تحويل هذه الكنيسة لشارع واحد بالعمارات وأصبحت الكنيسة القديمة متحفاً تابعاً للقصر وذلك لأسباب أمنية .

كانت الخرطوم القديمة مرتعاً لأجناس شتى من الخواجات وبعضاً من رعايا الدول المجاورة فكانوا ومعهم بعض السودانيين يرتادون الحانات والكباريهات كالجي إم اتش وصالة غردون والجي بي وهي مراقص وأماكن للفجور ولعل أسوأ تلك الممارسات المشينة كانت تلك المنازل التي كانت معروفة "بزقاق أبو صليب" حيث المومسات والبغايا وبموافقة الإنجليز وإشرافهم الصحي عليها وقد وضعوا علامة (×) في أول الزقاق ليعرف الجنود الإنجليز وغيرهم أين يقضون أوطارهم فكانت تلك المنازل مسارح للجرائم ومنابع للأمراض الفتاكة حتى تمت إزاحتها في السبعينات من القرن الماضي.

كما كانت هناك جمعيات مشبوهة كجمعية الماسونية والتي تجمع بين مسلمين ومسيحيين ويهود، ويقومون بأنشطة لا يعلمها أحد غيرهم، وكان مقرها شرق وزارة الإعلام بشارع الجامعة ، وكان هنالك أندية الليونز والروتاري وهي منظمات تتبع لشبكات عالمية وكان أعضاؤها يجتمعون شهريا في القراند هوتيل ولم تخدم تلك الأندية أي أهداف نافعة للسودان.

الفصل الرابع : النشاطات الرياضية والفنية:

كانت بالخرطوم عدة فرق رياضية وأهمها النيل والأهلي وبري وتوتي، وكان مقر الفريقين النيل والأهلي في قلب الخرطوم وكان عثمان الزئبق يتبنى فريق الأهلي بينما يتبنى الفوال فريق النيلى، وكان بينهما تنافس حاد ورهانات مشهودة حيث يستخدمان كراسي الخيزران التي يقومون بتأجيرها في الحفلات للرهان بدلا من المال فترى عربة الكارو تحمل خمسين كرسيا من مخازن الزئبق وتتجه بها لمخازن الفوال في حالة انتصار النيل على الأهلي والعكس صحيح. أما بري وتوتي فهما يمثلان المناطق المنتمية لها كما كان هنالك فريقان من الديوم وهما فريقا فكتوريا وسمي فيما بعد بفريق النسر وفريق ديم سلمان وعدد من الفرق الصغيرة. وكان الميدان الرئيسي لكرة القدم هو ميدان النجيلة والمعروف الآن بميدان الأمم المتحدة غرب جامع الخرطوم الكبير وكانت احتفالات المولد النبوي الشريف تقام في نفس الميدان.

أما في المنطقة الواقعة جنوب السكة حديد وشمال الديوم حيث الميدان الفسيح الذي سبقت الإشارة إليه. كانت هناك ميادين للفرق الصغيرة كفريق البرنس والكفاح والقوز وجلاس، وبعضها أصبح من فرق الدرجة الأولى فيما بعد.

أما أنواع الرياضة الأخرى ككرة السلة والكرة الطائرة وتنس المضرب فكانت تمارس داخل أندية الفرق الكبيرة وفي نادي الخريجين

وفي مضمار الألعاب التابع لكلية كمبوني، كما كانت تقام منافسات بين المدارس وبين منتخبات من الخرطوم وأم درمان والخرطوم بحري حيث كان الأستاد الوحيد هو دار الرياضة بأم درمان أو ميدان النجيلة بالخرطوم.

أما الفروسية فكانت محصورة في بعض البيوتات السودانية الارستقراطية ومعهم بعض الأجانب كآل ليكوس وكونتومخالوس وقد قاموا ببناء اصطبلات للخيل في جنوب غرب الخرطوم وذلك قبل بناء نادي سباق الخيل الموجود الآن.

وعلى النيل كانت هناك زوارق يمتلكها بعض الخواجات ثم انتظموا فيما بعد في ناد لهم أصبح نواة لنادي الزوارق الموجود الآن، وقد اهتم الإنجليز بتنظيمات الكشافة وكانت إحدى زوجات المديرين المشرفة على الكشافة يساعدها كوكبة من المطوعين السودانيين وكانت لهم نشاطات مختلفة في كثير من المجالات الإنسانية.

كانت الأغاني الشعبية مرتبطة بالقبائل المختلفة الموجودة في الخرطوم فمثلا كان المغنون من قبيلة التعائشة يتغنون بألحان من غرب السودان "الزول بلا أهله مالى غلا" ومن الشمال "بنات المحس العظاما الفوقن هيبة وكرامة" وهكذا أو " ضرب السوط مد كدي خلي الجعلي اليجي".

وظهرت أغاني الرق المعروفة الآن بالحقيبة بشعرائها كود الرضي وعتيق وإبراهيم العبادي وغيرهم وقام بتلحينها المبدعون من أمثال سرور وكرومة وعبد الله الماحي والفاضل أحمد وغيرهم وكانت الأغاني محصورة في منازل الأفراح بل كانت تهبط فكرة الأغنية على الشاعر أثناء ساعات الغناء كالذي ألف أغنية "يا قائد الأسطول" وكان ذلك في حوش بولص الذي يقطنه مجموعة من الأسر السودانية،وكانت المناسبة وضع الحنة للعريس حيث جلس هو وأصدقاءه في حوش "الرجال" وأمامهم رتينة يجهر ضوؤها كل قادم إليهم وكان لابد لأخوات العريس وقريباته والمدعوات للحفل للحضور لمكان العريس لوضع الحنة على يد العريس ولكن نور الرتينة الجاهر يمنع كل واحدة منهن من التقدم أمام المسيرة وهم يغنون للعريس وهكذا انتظر العريس وأصحابه دخول موكب الحنة وصحن الباشري المحمول ومن حوله الحق والبخور ينطلق ويعبق المكان ولكنهن ظللن يترددن من منهن تقود الموكب للوصول إلى حيث العريس وأصحابه فما كان من بنت عم العريس وكانت فائقة الجمال فارعة القوام من قيادة المسيرة وهي تزغرد لابن عمها... عندها أنشد صديق العريس "يا قائد الأسطول تخضع لك الفرسان"...الخ.

وانتشرت أغاني الحقيبة في العاصمة والأقاليم وظهرت أغاني التم تم وهي أغاني البنات بالدلوكة وكل أغنية تعكس بطولات وأخلاقيات الأهل وكان الشبان يقفزون في الهواء ثم يكشفون ظهورهم

ويطلبون من العريس أن يلهب ظهورهم بالسوط كي يبرهنوا أنهم فعلا أخوان البنات.

وكانت السيرة تخرج من منزل العريس متجهة إلى منزل العروس على الأقدام حيث يمشي العريس وأصحابه أمام السيرة ومن حوله قريباته وبقية البنات وهن يرددن خلف المغنية "الليلة العديلة ليه ... السيرة أم قناية ليه" والقناية هي عود من القنا تشعل بالنار في رأسها وترفع أمام السيرة وكان الشبان يسيرون خلف السيرة في شكل نصف دائرة كأنهم يحمون البنات ولا يسمحوا للصعاليك والسكارى من الاقتراب من السيرة ، وقد تحدث بعض الاحتكاكات وقد تنتهي السيرة بمشاجرة فيتكفل العريس وأصدقائه بإيصال "البنات" لمنازلهن بسلام.

ثم ظهرت أغاني العود الحديثة وكان من أول العازفين على العود العم عبد القادر سليمان شقيق الفنان حسن سليمان ومن أوائل الذين عزفوا الكمنجة العازف المبدع السر عبد الله ثم جاء جيل بدر التهامي والماحي وعبد الفتاح الله جابو، وكان برعي محمد دفع الله وعلي مكي وغيرهم من أشهر عازفي العود.

وكان من أوائل المغنين في الإذاعة الفنان حسن عطية وأحمد المصطفى وقد سافرا للجبهة للترفيه عن الجنود أيام الحرب وجاء إبراهيم الكاشف من ود مدني ثم ظهرت عائشة الفلاتية، ويجب أن لا ننسى الفنان الكبير المثقف إسماعيل عبد المعين والذي قام بتلحين

بعض أناشيد المؤتمر وسافر لمصر وكان وجها مشرقا للفن السوداني. وكان أول من قام بتلحين أغنية سودانية على لحن "الفالس" الفنان التاج مصطفى في أغنية "الملهمة" كما قدم أحمد المصطفى لحن "السامبا" الخفيف في أغانيه المعروفة ، ثم جاء أستاذ الموسيقى المصري حسني إبراهيم الأستاذ بمدرسة فاروق الثانوية والذي تعلم على يديه النوتة الحديثة والألحان على السلم الخماسي والكوبيلهات المنفصلة كل من عثمان حسين والتاج مصطفى وسيد خليفة وغيرهم وبدأت تظهر في الحفلات جوقة العازفين المعروفة بالأوركسترا. وكان الموسيقار حسني يعزف على آلة القانون وقد كانت أغنية "الفراش الحائر" لعثمان حسين انقلابا في عالم الموسيقى السودانية حيث أبدع عثمان حسين في التوزيع الموسيقي وإدخال "الصولو" العزف المنفرد في ألحانه.

الفصل الخامس :المواصلات :

لعل أقدم وسيلة للمواصلات في الخرطوم كانت هي الحمير والبغال ثم الحناطير... فكان الحمارة (بتشديد الميم) يقفون بحميرهم غرب مسجد الخرطوم حيث يستأجر الزبون الحمار ويركب في مشوار إلى بري أو المقرن ويتبعه الحمار (بتشديد الميم) راجلا ثم يعود للمربط راكبا بعد أن يتسلم الأجرة.

ثم ظهرت الحناطير بجيادها المطهمة وأجراسها المجلجلة وكان يستأجرها الخواجات وبعض أبناء الذوات في مشاوير سياحية بشارع النيل وإلى بيت الخليفة بأم درمان وكان هناك عدد محدود من عربات الأجرة (التاكسي) وكانوا معروفين بالاسم وبألوان عرباتهم فلم يكن للتاكسي لون محدد وكان العدد لا يزيد عن عشرين عربة تاكس تقريبا. ثم ابتدع أحد التجار عربة مجرورة كبيرة تسع عشرة ركاب يجرها أربعة من الخيول وكانت تسمى العظمة .وفي أواخر الخمسينات ظهرت البصات الأهلية وهي لواري فورد ٤٦ وقد تم عليها تركيب صناديق مصنوعة من الخشب محليا عليها وكانت تعرف بالبص أبو تعريفة وهو أرخص أنواع المواصلات العامة.

أما بين المدن الثلاثة فكان هناك الترام والذي يسير بالكهرباء على خط حديدي وكانت قطارات الترام القادمة من الخرطوم بحري وأم درمان تلتقي في المحطة الوسطى بشارع الجمهورية بالخرطوم

كما كان هناك ترام ثالث يعرف بترام الدورات وكان يربط بين خطي بحري وأم درمان في شارع الملك نمر وشارع عبد المنعم مارا بشارع السيد عبد الرحمن وهو وسيلة سريعة وزهيدة الأجر ومريحة للركاب، وقد كان من أكبر الأخطاء إلغاؤها في حين أن الترام ما زال يعمل في القاهرة ولندن وغيرها من المدن العالمية.

كانت البواخر النيلية تنطلق من المقرن في المكان المعروف بالأسكلة تحمل الركاب والبضائع إلى المدن الواقعة على جانبي النيل الأبيض حتى ملكال وجوبا، ولعلنا نتذكر أغنية (من الأسكلا وحل).

أما السكة حديد فكانت تربط العاصمة بشرق وغرب وشمال السودان وكان للقطار مكانة عظيمة في قلوب كثير من الناس قد ظهرت أغاني مرتبطة بالقطار مثل (القطار المر مر فيه حبيبي) و(من بف نفسك يا القطار)...الخ . كان القطار يسير بالبخار وكان وقوده من الفحم الحجري وكانت هناك خمسة قطارات ركاب تنطلق من محطة الخرطوم ثلاثة في الصباح واثنين في المساء، ففي الصباح كان أكسبريس حلفا ومشترك كريمة وقطار بورتسودان وتخرج من محطة الخرطوم متجهة شمالا عن طريق كبري الخرطوم بحري. أما التي تتحرك في المساء فكانت قطار الأبيض وقطار كسلا حيث يتجها من خارج محطة الخرطوم شمالا ثم جنوبا بالخط الذي كان يمر بشارع الجزيرة أمام مطار الخرطوم مخترقا السواقي الزراعية التي قامت

عليها الآن مدينتا الرياض والطائف... الخ. أما قطارات البضاعة فقد كانت تسير في الاتجاهين المذكورين على مدار الساعة، وكان المثلث من العاملين يشتغلون بالسكة حديد بالخرطوم وكانت لهم مواعيد مضبوطة بصفارة الدخول والخروج، لقد أصبح كل ذلك أثرا بعد عين.

لم تكن البصات السفرية معروفة وكان الناس يسافرون باللواري السفنجة "البدفورد" والتيمس والفيات، وكلنا نسمع أغنية (يا سايق الفيات) لقد كانت أغاني الحقيبة تعكس بصدق الحالة الاجتماعية بالسودان.

الفصل السادس :التجارة :

كما أسلفنا فإن بعض الجاليات انخرطت في أعمال التجارة كاستيراد الأقمشة وإنشاء الأفران وتجارة الخمور، وكانت هناك أسر سودانية كآل عبد المنعم وآل أبو العلا وآل مصطفى ساتي وآل كبير وآل كشه وغيرهم يعملون في التجارة العمومية والمحاصيل.

أما تجارة الصادر والوارد فكانت محتكرة تقريبا بواسطة ثلاثة شركات إنجليزية هي شركة متشل كوتس وشركة سودان مركنتايل وشركة جلاتلي هانكلي فكان التجار المحليون يبيعون المحصولات السودانية من قطن وصمغ وسمسم وفول سوداني لتلك الشركات التي تقوم بتصديرها للخارج كما تقوم تلك الشركات باستيراد كثير من السلع والبضائع وبيعها للتجار المحليين.

وكان بالخرطوم مصرفان رئيسيان هما بنك باركليز للمستعمرات وما وراء البحار وبنك مصر، ثم تم فتح فرع لبنك إنجليزي تركي اسمه البنك العثماني وفرع آخر لبنك فرنسي اسمه الكريدية ليونيه، وقد أممت هذه البنوك في سنة ١٩٧٠م فأصبح بنك باركليز بنك الدولة للتجارة الخارجية ثم بنك الخرطوم فيما بعد وبنك مصر أصبح بنك الشعب والبنك العثماني بنك الوحدة والكريدية ليونيه بنك النيلين، فكانت تلك البنوك تسيطر مع الشركات الإنجليزية المذكورة والتي أممت أيضا في سنة ١٩٧٠م على التجارة الداخلية

والخارجيـــة في الســـودان.ومعنـــى كلمة تأميـــم هو أنها أصبحـــت ملكا للأمة.

لم تكن الشركات والبيـــوتات التجارية السودانية لتقوى علـــى منافسة تلك الشركات الإنجليزية المحمية بالقوة الاستعمارية. ومع ذلـك جاهدت البيوتـــات التجاريـــــة الوطنية اخــــترقوا مجـــال التجـــارة الخارجية ثم أنشؤوا البنك التجاري الســـوداني في أوائــــل الســـتينات وكسروا احتكار الأجانب لصناعة السينما الذين امتلكوا سينما برمبـــل بأم درمان وليكوس والنيل الأزرق بالخرطوم وفـــــــروعها فـــي مدني وبورتسودان فأنشأ التجار الوطنيون السينمات الوطنية بالخرطوم والخرطوم جنوب وأم درمان وبدلا من أفــــلام طـــرزان والكـــاوبوي عرضت السينمات الوطنية أفلام عربية هادفة كظهور الإسلام وعنـــتر وعبلة وليلى بنت الفقراء ...الخ.

لقد كان تعداد الخرطوم عندما نال السـودان اسـتقلاله سـنة ١٩٥٦م حوالي ١٠٠ ألف نسمة والآن يقدر عدد سكان الخرطوم بستة مليون نسمة، وامتدت الخرطوم أفقيا من حدودها الجنوبية التي كـــانت تنتهي عند مقابر فاروق لتصل جبل أولياء والباقير جنوبا، أما رأســـيا فإن عدد العمارات في الخرطوم فيعد بالمئات وتغير النسيج الاجتماعي السكاني تغييرا كاملا وأصبحت الخرطوم في مصاف العواصم العالمية من حيث العمران ولكنها ما زالت تصنف في دول العالم المتخلف مـــن حيث مستوى الحياة العامة والمعيشة المتعاقبة.

لقد نتج عن تجاهل الحكومات للريف السوداني شرقه وغربه شماله وجنوبه أن هاجر الملايين استقروا في أطراف العاصمة طلبا للعيش الكريم والاستقرار فظهرت الأحياء العشوائية في كرتون كسلا وأم ضريوة والجخيس ومانديلا ودار السلام إلى آخر الأسماء التي تظهر الخرطوم كفتاة ترتدي أجمل الثياب في صدرها وهي ممزقة الأسمال في عجزها وساقيها ولا يدري أحد متى وكيف تتم تنمية متوازية ليعود المهاجرون إلى ديارهم التي غادروها مضطرين ومكرهين بسبب العطش والجوع والفقر والجهل والمرض.

الباب الثانـــــي

الإنجليز في الســـــودان

الفصل الأول : تسلسل السلطة أيام الاستعمار:

منذ أن وطدت أقدام المستعمر ثرى السودان في سبـــنة ١٨٩٩ كان الحاكم العام هو السلطة العليا وقد حكم السودان منذ ذلك التـــاريخ تسع حكام أولهم اللورد كتشنر الذي قاد جيش الفتح وآخرهم سيرنوكس هلم والذي لـــم تزد مدة حكمه عن ١٠ أشهـــــــر انتـــهت بإعـــــلان استقلال السودان .

وكان للحاكم العام مجلس من ثلاثة مساعدين هـــم الســـكرتير الإداري والسكرتير المالي والسكرتير القضائي. ويندرج تحت ســـلطة السكرتير الإداري الهيكل الإداري للحكم في الخرطوم وبقية المديريات حيث يحكم كل مديرية مدير له نائب ثم عدد من المفتشين المنتشـــرين في مراكز المديريات المختلفة، وكان يســـاعد المفتشـــين عـــدد مـــن المصريين في وظيفة مأمور ثم عدد من السودانيين في وظيفة نـــائب مأمور.وكان للحاكم العام أثنان من حرس الشرف أحدهمـــا إنجلـــيزي ووظيفته كبير الياوران "ايد دي كامب" والثاني سوداني وكان في ذلـــك الزمان هو الأمير آلاي "عميد" مامون المرضي كما كان هناك ممثـــل للفرقة المصرية بالســـودان وكان هو القائم بمقام "عقيد" علي نجيـــب

شقيق اللواء محمد نجيب الذي قاد الثورة المصرية ضد الملكية في مصر.

وفي أواخر الخمسينات من القرن الماضي كان آخر حاكم عام هو السير نوكس هلم وكان السكرتير الإداري – وهو أشبه برئيس الوزراء الآن – هو المستمر جيمس روبرتسون والذي أصبح فيما بعد حاكما عاما على نيجيريا وكان يسكن في المنزل الذي أصبح الآن وزارة الإسكان بشارع النيل ، وكان السكرتير المالي في منزل جنوب وزارة الطيران الآن، أما السكرتير القضائي فكان يسكن في المنزل الواقع شمال الهيئة القضائية، وكان يتبع لهؤلاء السكرتاريين عدد من النواب والمساعدين من الإنجليز كما كان هناك مديروا الشركات والبنوك الإنجليزية ونوابهم ومساعديهم من الإنجليز. أضف إلى ذلك ضباط وصف ضباط جنود الجيش الإنجليزي المرابط في شرق الخرطوم المعروف الآن بالباركس. وحتى في كلية الخرطوم الجامعية وفي المدارس العليا كوادي سيدنا وحنتوب كان هناك مدرسون إنجليز.

وكان لكل مصلحة (الآن تسمى وزارة) كمصلحة المعارف ومصلحة الزراعة ومصلحة الصحة مدير إنجليزي يتبعون لمدير المديرية كما كان قمندان البوليس وقمندان السجون تابعين لمديرية المديرية. فإذ علمنا أن الحي الإنجليزي الواقع بين شارع المك نمر ونفق بري وبين السكة حديد والنيل الأزرق كان يقطنه الإنجليز فقط لرأينا كم كان عددهم كبيرا بالخرطوم

وكان للإنجليز نادي خاص بهم ومكانه الآن مبنى وزارة الخارجية بشارع الجامعة وكان له حوض سباحة ولعله موجود حتى الآن وكنت ومعي بعض الأخوة نذهب لذلك النادي ونقف خلف اللاعبين من الإنجليز وأصدقائهم من الأجناس الأخرى وهم يلعبون تنس المضرب في النادي الإنجليزي المعروف بسودان كلب ثم نلتقط الكرات الطائرة ونعيدها للاعبين، ثم نعود في المساء وفي جيب كل منا ملاليم معدودة وفي بطوننا بقية من الكيك والبرتقال الذي كان يتناوله الخواجات مع الشاي بعد انتهاء اللعب فنقوم نحن بالهجوم على المائدة بعد أن يذهب الخواجات ولا يمنعنا من ذلك أحد. وإلى جانب تنس المضرب كان الإنجليز وأصدقاؤهم من الخواجات يمارسون ألعاب الجولف والبولو وغيرها في غابة السنط مكان المطار الآن أو في الفراغ الواقع جنوب الخرطوم مكان امتداد الدرجة الثالثة والصحافات .

كانت فرقة موسيقى "القرب" والتي يعزفها مجموعة من الجنود الأسكوتش "من اسكتلندا" تتبع لفرقة الجيش الإنجليزي المقيمة بالباركس شرق الخرطوم كانت تجوب الشوارع في أعياد الكريسماس أو عيد ميلاد الملك جورج وكنا نتبعها في شوارع العاصمة ونحن نحاكي خطوات الجنود في مرح وسرور، ومن جهة أخرى وعندما يهلك أحد الخواجات كنا نتبع الجنازة وهي تسير بخطى وئيدة تصحبها موسيقى حزينة والسلاح منكس نحو الأرض وفي المقبرة الواقعة داخل

حوش السكة حديد الآن يتم الدفن وتطلق عيارات نارية في الهواء وكان بعض الإنجليز يضعون باقات من الورد الأحمر على القبر ثم يرفعون قبعاتهم وينحنون ثم ينصرفون.

وفي النهار ترى كثيرا من زوجات الإنجليز وهن يتجولن في سوق الخضار حيث يقمن بشراء الكرمب والكرنبيت والخص والفواكه وغيرها ثم يعدن بسياراتهن الصغيرة للحي البريطاني بشرق الخرطوم. وكان بعضهن يعملن في أعمال خيرية كجمعية الصليب الأحمر وجمعيات الكشافة وغيرها.

كان آخر مدير لمديرية الخرطوم المستر دينسون ومعه نائبه الإنجليزي وقد تصحبهم زوجاتهم يجوبون شوارع الديوم على صهوات خيولهم في الصباح الباكر للتأكد من نظافة الأحياء وكانت الأسر تعلم بوصولهم بالصفارة التي يطلقها شيخ الحلة فتسرع لنظافة المنازل والشوارع كل أسرة داخل بيتها وأمامه.

وقد يقف المدير مع أحد الأهالي ويسأله إن كان ملاحظ الصحة يقوم بالمرور بانتظام على المنازل للتأكد من صحة البيئة ثم يسأل إن كان تاجر الحي لا يبالغ في أسعار السلع وقد يتساءل لماذا بعض الصبية يلعبون في الشوارع في الصباح ولماذا لا يذهبون للخلوة أو المدرسة، ثم يدلف المدير إلى نقطة الغيار الصحية ويسأل المساعد

الطبي عن عدد الزوار وأنواع الأمراض التي تم تسجيلها وكمية الدواء المتوفر ... الخ وقد عرفنا أن المفتشين يقومون بنفس الجولات التفتيشية في مراكزهم وكنا في بعض العصريات نذهب لغابة السنط في شرق الخرطوم مكان المطار الآن لنتفرج على المدير وبعض الإنجليز وهم يلعبون الجولف وقد نذهب للخلاء الواقع جنوب الديوم المعروف بالصحافة الآن، حيث يلعب الإنجليز وبعض أصحابهم مع الجنسيات الأخرى البولو أو الهوكي وهي ألعاب إنجليزية لم تستمر بعدهم كثيرا.

الفصل الثاني: من داخل الصراية :

كان والدي رحمه الله تعالى رئيسا لعمال جنينة القصر، وقد بدأ العمل في حوالي ١٩١٨م بقسم جنائن مديرية الخرطوم وأخبرني أنه أول ما قدم من الشمالية حيث حفظ القرآن في خلوة الغريبة العريقة (أقدم خلوة في السودان) حيث أنشئت عام ٨٥٠هـجرية قال أنه عمل في ري أشجار الشوارع وكان يعمل صبيا مع سائق الفنطاز المملوء ماء والذي تجره البغال وكان والدي يقوم بتوصيل خرطوش من صنبور بالفنطاز ويضعه في الحوض المغروسة فيه الشجرة وكانت تلك الأشجار بشارع النيل وشارع الجامعة ثم تم نقله للعمل داخل الصراية ثم بعد مدة طويلة أصبح رئيسا للعمال بالصراية.

وقال أنه لاحظ في بداية عمله بالقصر أن الإنجليز كانوا يحضرون إلى موقع شرق مبنى القصر داخل الجنينة محفوف بأحجار وكان أشبه ما يكون بالقبر وكان الإنجليز يحضرون لهذا الموقع ثم يضعون علامة الصليب على جباههم وصدورهم وقد يضعون بعض الورود الحمراء وبالسؤال علم أن ذلك كان هو الموقع الذي سقط فيه غردون ميتا بعد أن أشبعه الأنصار طعنا بالحراب.

كان يشرف على مصلحة البساتين مدير اسمه المستر روبي وكان يشرف على الميادين المخضرة والأشجار وحدائق المنازل التي يقطنها الإنجليز والحدائق العامة وبالطبع على حدائق الصراية.

وكان الحاكم العام ينزل أحيانا للتنزه في حديقة القصر وكان يطوف معه المستر روبي أو الملاحظ شاكر، وكان يتبعهم الوالد حيث يجيب على أسئلة المستر روبي فيقوم الأخير بشرح ما قاله الوالد عن هذه الشجرة أو تلك وكان الحاكم يحمل مقصا فيقوم بقطع الورد بنفسه ويسلمها للوالد الذي يقوم برصها في شكل منسق ويرسلها للمسئول عن غرفة الحاكم بالصراية حيث كان يقيم وعائلته.

ثم كان الوالد يرسل كل صباح كميات من الورود والأزهار مع أحد العمال ليضعها في المزهريات الموزعة في غرف وردهات القصر بدلا عن الأزهار التي وضعت في اليوم السابق.

وفي حوالي ١٩٥٢م كنت مع الوالد بحدائق القصر وكان ذلك أثناء الإجازة الصيفية للمدرسة وفجأة رأيت والدي يقف باهتمام كأنه جندي أمام قائده والتفت فإذا رجل إنجليزي عريض الوجه له خصلة بيضاء في شعره من الأمام وخلفه ضابط فعرفت أنه الحاكم روبرت هاو الحاكم قبل الأخير للسودان واقترب من الوالد ثم حياه والتفت إلي وأنا في حالة اضطراب وسأل الوالد "دا ولد بتاعك" فرد الوالد بالإيجاب ، ثم سألني إن كنت أذهب للمدرسة وكان سؤاله بالعربي الركيك فأجبت "يس" فضحك وقال تتكلم إنجليزي فقلت نص نص، فقال للوالد لماذا لم يذهب للمدرسة فأجاب الوالد أنه بالإجازة الصيفية فقال لماذا لا يستفيد من الإجازة في التدريب على عمل مفيد ، ثم التفت

إلي مــــــــرة أخرى وقال أبوك اسمه عبد الوهاب قلت "يس" فقال هل هو وهابي فأسقط في يدي فلم أكن أعرف ما كان يعنيه بكلمة وهـــابي فاسعفني الوالد قائلا : لا "أنا ختمي أنا صوفي" فضحك الحاكم العــــام وقال أنا عارف ثم قال لي هل تريد أن تتعلم الطباعة على الآلة الكاتبة قلت "يس" قال للوالد يجي بكرة لمكتب المستر شـــو وهـــو ســـكرتيره الخاص لأخـــذ خطاب منه لمدير شركة متشل كونس لتدريبي علــــــى الآلة الكاتبة.

وفي اليوم الثاني كنت أقدم لمدير شركة متشيل كوتس مظروفا أزرقا صغيرا مطبوع عليه من الخارج باللغة الإنجليزية ثلاثة حـــروف اختصار لمكتب الحاكم العام. ولعل مدير الشركة قد اندهش لهذا الشاب الذي يقف أمامه ومعه خطاب بتلك الأهمية وبعد أن قرأ الرسالة التـــي وقعها المستر شو سألني إن كنت أنوي العمل معهم بصفة مستديمة أم لمدة الإجازة فقط فأجبت مدة الإجازة فسألني هي يكفينـــــي مرتـــب ٦ جنيهات في الشهر فلم أصدق لأن والدي الذي ظل يعمل لأكـــثر مـــن عشرين عاما كان مرتبه ٨ جنيهات فأجبت بأن ذلك مبلغ كبـــير وأنــــا جئت للتدريب فقط فرد المدير بأن الحاكم قد أوصى بمنحكــــم مرتـــب مساعدة لوالدكم وقرر أن المرتب سيكون ستة جنيهات، وهكذا عملـــت بشركة كوتس لمدة ثمانية سنوات وكنت اســـــمع الـــهمس حولـــي ود الصراية جاء وود الصراية مشى ولعل مصدر ذلك الهمس كـــان هـــو المرتب الذي كنت استلمه مع أني موظف تحت التمرين!.

وعودة إلى جنينة القصر فقد كانت مقسمة إلى أربعة أقسام وهي قسم الميادين في غرب الجنينة ومواجه لمبنى الصراية وقسم الفواكه وقسم الخضار وقسم المشتل ، وكان بالجنينة أشجار الموالح من ليمون ولارنج وبرتقال ومنجة وقريب فروت وتفاح ورمان وقشطة وزونبيا وعنب ونخيل وكانت الميادين الكبيرة وأكبرها يسمى كرش الفيل تستعمل للحفلات التي يقيمها الحاكم وأشهرها الحفل السنوي لزعماء العشائر الذي يتوافدون له من جميع أنحاء السودان، أما قسم المشتل ففيه تقطع عقل الجهنمية ويتم تطعيم الأشجار وتستنبط سلالات جديدة من الزهور وذلك بإشراف المستر روبي ومساعديه من الفنيين السودانيين، وقد تم إضافة نوع من الورد أطلقوا عليه مسز هاو وهي زوجة الحاكم العام.

وكان في أقصى شرق الجنينة حوض واسع من الأسمنت كنا نسميه الفاسقية حيث يصله الماء من النيل بأنابيب حديدية ويستخدم ذلك الحوض لري الجنينة والجناين القريبة وكنا نذهب للفاسقية ونتعلم العوم أو نجلس حولها وأقدامنا في الماء ونحن نأكل من الفواكه المختلفة ومن قسم الخضار كنا نحمل لمنازلنا الفواكه والطماطم والبازنجان الأسود والأبيض والقرع وغيرها حيث كان الإنتاج يزيد عن حوجة الحاكم وكبار مساعديه وربما تتلف بعض الخضروات لعدم الاستفادة منها، كما كانت الوالدة رحمها الله توزع ما يزيد عن حاجتنا من الفواكه والخضروات على الجيران وكانوا يبادلون الوالدة بهدايا مثلها أو أحسن منها.

كانت الليدي هاو حرم الحاكم العام من هواة تربية الخيول وكان لها اصطبل داخل جنينة القصر من الناحية الشمالية وكان لها فرسة حمراء وجبينها أبيض وكانت تحبها غاية الحب فتراها دائما تمسح بالسوق والعنق.

وفي إحدى الأيام وكانت الفرسة تعاني من المخاض فالليدي هاو كانت تنتظر لها حدثا سعيدا وكانت الفرسة تئن وتصهل. بصوت يقطع الأكباد وكانت الليدي هاو وحولها عدد من الإنجليز في حالة طواري وكان يستعملون التلفون أحيانا ثم أرسلوا عربة لاستعجال حضور الطبيب البيطري والذي كان من المفروض أن يبقى بجانب الفرسة ولكنه تأخر فأسرع أحد العمال إلى الليدي وقال أنه يمكن أن يقوم بتوليد الفرسة وترددت الليدي ثم وافقت فقد كانت تخشى أن تموت الفرسة في تلك الحالة وفعلا قام العامل وهو من أبناء قبيلة الرزيقات المشهورة بتربية الخيول قام بتوليد المهرة بسلام وعندما حضر الطبيب البيطري كانت الفرسة تلحس المولود الجديد في حنان حميم كما كانت الليدي تدمع عيناها من الفرح واستلم العامل الجسور هدية كبيرة.

الفصل الثالث : اليوم المشهود :

إنه اليوم الأول من يناير سنة ١٩٥٦م حيث تم رفع علم السودان تأكيدا لاستقلال البلاد من الحكم الثنائي الإنجليزي المصري. وكانت الصراية وحدائقها محاطة بالجماهير المبتهجة بتلك المناسبة وكانت قوات الشرطة وقوة دفاع السودان تحرس المداخل حيث لا تسمح بالدخول لحدائق القصر إلا للنواب الذي أتوا في مظاهرة من البرلمان وكبار الضيوف الذين وجهت لهم الدعوة رسميا وكان على رأس هؤلاء السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي، وكان من السهل علي ومعي قريب لي أن نتسلل إلى داخل حديقة القصر عن طريق باب القسيس في الجانب الشمالي الشرقي من الجنينة وكنت أعرف الدروب وسط الأشجار حتى وصلنا لمكان الاحتفال.

ورأيت في أعلى بناية السراية ثلاثة جنود كان أحدهم يقوم بانزال العلم البريطاني والثاني ينزل العلم المصري والثالث يقوم برفع العلم السوداني الجديد وكانت الموسيقى تعزف النشيد الوطني "نحن جند الله..." والجميع يهللون ويكبرون ورأيت السيد عبد الرحمن المهدي وهو يكفكف دموع الفرح ، وفيما بعد علمت أن الجنود الثلاثة الذين تشرفوا بذلك العمل العظيم في ذلك اليوم المجيد هم الملازم حمدنا الله طه والملازم محمد عوض الكريم والملازم محمد سعيد عباس وجميعهم من سلاح المهندسين.

لقد أقيم الاحتفال الرسمي في الميدان الكبير (كرش الفيل) حيث قام الزعيم إسماعيل الأزهري والزعيم محمد أحمد محجوب برفع علم السودان وقام الزعيم الأزهري بتسليم علم بريطانيا ملفوفا لمندوبها في الاحتفال وكذلك للمندوب المصري. لقد كان يوما مجموع لـه النـاس وكان يوما مشهودا.

الفصل الرابع : الشركات الإنجليزية :

كانت الشركات الإنجليزية ومعها البنوك الإنجليزية وبعض البيوتات التجارية الأجنبية المتعاونة معها هي لب الاستعمار الاقتصادي للسودان فقد كانوا يسيطرون على تجارة الوارد والصادر حيث يقوم التجار ببيع المحاصيل لتلك الشركات وشراء السلع والبضائع التي تستوردها على تجار الجملة.

وفي شركة متشل كوتس وهي من الشركات العابرة للقارات ولها فروع في الهند ومصر وجنوب أفريقيا وكينيا كانت الإدارة للبريطانيين يساعدهم في إدارة الأقسام والفروع بعض الإيطاليين واليونانيين الذين يؤتمنون على أسرار تلك الشركات.

كانت تلك الشركات متخصصة ومحتكرة لاستيراد العربات والآلات الزراعية فكانت متشل كوتس مثلا وكيل لشركة جنرال موتورز التي تصنع عربات الأوبل وشركة روفر التي تصدر عربات اللاندروفر وشركة فورد الإنجليزية التي تصنع لواري البدفورد . لقد كانت المهام المكلفة بها تلك الشركات هي بيع الواردات بأعلى الأسعار وشراء المحاصيل المحلية بأبخث الأثمان وبإستجلابهم للواري والآليات والمعدات الزراعية. كانت تلك الشركات تسيطر على نشاطات النقل والزراعة في السودان وهي تتمتع بتشجيع وحماية السلطة الإنجليزية.

وفي أثناء عملي بقسم الحسابات المركزية بشركة متشل كوتس لاحظت أن كثيرا من المستندات كانت محصورة التبادل بين الإنجليز وأعوانهم من الخواجات ومكتوب عليها بالخط الأحمر سري وكان غير مسموح لنا أن نسأل عن تلك الحسابات ونطلع عليها. لقد كان الخواجات من غير الإنجليز هم المسيطرون على تلك الشركات، فمدير الحسابات والمدير التجاري من الأغاريق ومدير قسم العربات طلباني ومدير فرع شركة سوكونو فاكوم والتي أصبحت فيما بعد موبل أويل كان يهوديا وكانت تعقد اجتماعات أسبوعية يرأسها المدير العام الإنجليزي.

لقد كان بعض الإنجليز يقبلون الرشوة فقد جاء أحد أبناء زعماء العشائر وهو يرتدي زيا بلديا (جلباب وعمة) وأخبر رئيس قسم الآليات الزراعية بأنه علم بوصول طلمبة الماء التي كان قد طلبها بواسطة تلك الشركة ودفع عربونا بذلك إلى ميناء بورتسودان حيث تسلم تلغرافا من شقيقه يخبره بأنه وجد صندوق بالميناء مكتوب عليه اسمه فأنكر الخواجة ذلك فطلب منه الزبون السوداني أن يقابل المدير الإنجليزي وأمام المدير قال الخواجة باللغة الإنجليزية أن الطلمبة فعلا قد وصلت ولكن هناك زبون مستعد لدفع مبلغ كبير نظير استلامه لتلك الطلمبة وأن المبلغ الزائد سيقتسمه مع المدير فنظر المدير الإنجليزي للزبون السوداني وقال في عربية ركيكة "نحن متأسفين طلمبة بتاعك بتصل بورتسودان الشهر القادم فكانت المفاجئة أن الزبون السوداني رد

على المدير الإنجليزي بنفس لغته بأنه كان يعتقد أن الإنجليز عـــادلون ولكنه سيذهب من مكانه للسكرتير الإداري ويخبره بهذا الذي حدث فما كان من المدير الإنجليزي إلا أن وثب على قدميه وأمسك بالزبـــــون الســـوداني وأكـــــد لـــه أنه سيأمـــر بتسليمه الطلمبـــة فـــورا مـــن بورتسودان وكان أن تم له ذلك.

لقد انتشر الإنجليز في جميع أنحاء السودان مديرين للمديريات ومفتشين للمراكز وأطباء المستشفيات وخبراء في المجالات المختلفـــة وكثير منهم قسيسيين يشرفون على إرساليات تبشيرية في جبال النوبـــة وفي جنوب السودان وأكبر تلك الإرساليات هـــي إرســـالية الســـودان الداخلية والتي كـــــان رئيسها يسكن في منـــزل داخل سراية الحـــاكم كما أسلفنا.

وقد تبحر بعضهم في دراسة اللغة العربية حتى أن أحدهم وهو المستر اسكت مدير مصلحة المعارف قام بتـــأليف كتـــاب الأطفـــال للمدارس الأولية باللغة العربية، ولكن كراهية ذلك الخواجة للإســـــلام ظهرت جلية في كتاب الأطفال حيث ألف قصصـــــا ســـماها "محمـــد الطماع" و"طه القرشي مريض"...الخ وبعضهم اهتم بالعادات والتقـــاليد عند القبائل المختلفة وهو ما يعرف الآن بعلم الأجنـــاس ودونوا ذلـــك في مجلـــــة معروفة باسم "سودان نوتس أندركوردس" موجـــــــــود منها نسخ عديـــــدة في مكتبة جامعة الخرطوم.

وعندما وقعت اتفاقية الحكم الذاتي للسودان وتمت سودنة الوظائف التي كان يشغلها الإنجليز أصيب الكثيرون منهم بالإحباط وقد سمعنا أن أحدهم بعد أن عاد لانجلترا انتحر وبعضهم كتب أن السودانيين لن يستطيعوا حكم أنفسهم ولا أدري إن كان ذلك الخواجة لا يزال حيا هل سيكون علينا من الشامتين؟

سبق أن أوضحنا أن الإنجليز في فترة حكمهم قد انتشروا في جميع مديريات السودان فكان لكل مديرية مدير إنجليزي ونائب وعدد من مفتشي المراكز وكانت سلطاتهم مطلقة وكان زعماء العشائر يعملون تحت إشراف المفتشين فيساعدونهم في جباية العوائد والمكوث وفي حفظ الأمن وفي تقديم المشورة في المواضيع المختلفة.

لقد كان نظام الحكم الأهلي من الأنظمة الفريدة في العالم فالناظر مثلا كان يقوم بالإشراف على مساحات جغرافية واسعة ويتمتع بولاء القبائل وكان ذلك قليل التكلفة الإدارية فاستفاد الإنجليز من هذا النظام وطوروه وقد كان من أكبر الأخطاء إلغاء هذا النظام خصوصا في الأماكن النائية وقد فشلت تجربة الحكم المحلي مع تعديل قوانينه لعدة مرات ، ولهذا فقد أعادت بعض الحكومات في الخرطوم لهذا الحكم شيئا من فعاليته وإن كانت الاجتهادات في بعض الحالات لتطويره بما يرضي سياسة تلك الحكومات قد عادت بنتائج سالبة وفي بعض الأصقاع مدمرة.

لقد كان لبعض زعماء العشائر مواقف قوية ضد تمادي بعض المفتشين الإنجليز في تنفيذ سلطاتهم ، وهناك قصة مشهورة وهي أن

أحد زعماء العشائر قد قام بكسر قلم المفتش عندما وجد أن الخواجة كان ظالما في قراره ضد ذلك الزعيم وقبيلته ثم أرسل الزعيم للسكرتير الإداري يطلب منه استبدال المفتش وقد تم نقله بالفعل.

وزعيم آخر كان عندما يحضر للحفل السنوي لزعماء العشائر بالسراية تلبية لدعوة الحاكم العام كان يحضر كأسا من قرن التيتل وعندما يصبوا له العصير المبرد لا يتناوله من الكوب مباشرة بل يصبه في قرن التيتل فإن تغير لون العصير لم يشربه لأنه يعتقد أنه في حالة تغيير اللون فإن ذلك المشروب يكون مسموما فهو لم يكن يثق في الخواجات.

الفصل الخامس : الإنجليز واستغلال السودان:

معروف أن الإنجليز جاءوا للسودان لإخماد الثورة المهدية وللانتقام لمقتل غردون وبالطبع فإن السبب الحقيقي أنهم جاءوا من أجل استغلال موارد السودان لمصلحة بريطانيا العظمى آنذاك فأنشأوا مشروع الجزيرة لإنتاج الأقطان كمادة خام لمصانع الغزل والنسيج بانجلترا (وحتى خط السكة حديد الذي أنشأوه عند بداية الفتح جعلوه خط واحد ومن الوزن الخفيف في حين أن خطوط السكك الحديدية دائما ما تكون خطين ومن الوزن الثقيل وكان ذلك من أجل استعجال وصولهم للسودان فقط.

لقد كان في الإمكان بناء قاعدة صناعية لصناعة النسيج بالسودان ولكن كان ذلك مناف لسياستهم الاستغلالية، وحتى التجارة الخارجية ومعظم المعاملات التجارية الداخلية كانت محتكرة لشوكاتهم كما أسلفنا مما جعل مرافق النقل والتوسع الزراعي تحت رحمة تلك الشركات. ولم يقوموا بتطوير زراعة القمح في الشمالية ولا تربية الماشية في الغرب وأهملوا الجنوب وموارده البشرية والطبيعية ولا تربية الماشية في كثير من أنحاء السودان.

أما التعليم فكان مخطط له أن يخرج أفندية للمكاتب فكانت هناك ثلاثة مدارس ثانوية حكومية في وادي سيدنا وحنتوب وخورطقت ولم تكن بالسودان جامعة فالمدارس العليا بالخرطوم حولوها لكلية جامعية تابعة لجامعة كامبردج بانجلترا ولم تصبح جامعة

إلا بعد الاستقلال. بل منع الإنجليز الطلاب السودانيين للذهاب لمصر لمواصلة تعليمهم فسافر الكثيرون سرا وكان أسوأ ما فعلوه هو التمهيد لفصل جنوب السودان بإصدارهم لقانون المناطق المقفلة والتي جعلت من المستحيل على الشماليين والجنوبيين الاندماج والانصهار التلقائي مع بعضهم البعض فظل السودان متخلفا كما أن الجنوب على وجه الخصوص كان أكثر تخلفا بالرغم من الموارد الطبيعية الهائلة التي كانت ولا زالت متوفرة فيه.

وفي سنة ١٩٥٥ وقبل خروج الإنجليز تماما من السودان انفجر التمرد في جنوب السودان بإيعاز من الإنجليز لقد كانت قنبلة موقوتة.

لقد كان من النتائج الإيجابية العظيمة لاستقلال السودان بعد رحيل الإنجليز هو الازدهار الذي تم في تنويع وتوسيع المساحة الزراعية للقطن فقامت مزارع في امتداد المناقل وفي جبال النوبة وفي القضارف وأصبح السودان أكبر مصدر للصمغ العربي والسمسم والحبوب الزيتية الأخرى، وشرع السودان في تصدير الماشية واللحوم.

وكانت بريطانيا قد سعت لضم السودان لمجموعة الكمونولث التي تشمل مستعمراتها السابقة ولكن السودان رفض ذلك من أول وهلة وفضل أن يشق طريقه عضوا في الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الأفريقية ، ولم يعد للإنجليز في السودان إلا لغتهم التي هي حقيقة اللغة الأكثر انتشارا في العالم من اللغة العربية.

الباب الثالث

سنين الأمريكـــــان

الفصل الأول : العلاقة التاريخية :

لا يمكن أن أوثق أو أنقل سلسلة تاريخية لعلاقات أمريكا مـــع السودان في الماضي القريب أو البعيد لأن هذا لا يدخل في موضـــوع هذه الخواطر العابرة. ولكن يمكن أن أشير لبعض الأحداث التي لـــها ارتباط بعلاقة الأمريكان بالسودان بدون أن أخرج عن موضوع هـــذا الفصل من الكتاب.

ولعلي أبدأ بقدوم المستثمر الأمريكي لـــي هنـــت الـــذي قـــدم للسودان في أوائل القرن الماضي وبالتحديد في ١٩٠٣. وكما جاء فـــي كتاب أرثر حيتسكل المدير الأسبق لمشـــروع الجزيـــرة فـــي كتابـــه "الجزيرة قصة التنمية في السودان"(١) فمستر هنت كان رجل أعمـــال ثري قدم للسودان بعد أربعة سنوات من استقرار الأحوال للمستعمرين وكان له جهد متواصل في بلدان كثيرة آخرها مصر، وقد قام برحلـــة على طول نهر النيل حتى وصل إلى جنوب السودان. وعنـــد عودتـــه للخرطوم طرح على الحاكم العام آنذاك السير ونجت فكرة إنتاج القطن في السودان كما اقترح تشجيع هجرة العمال المـــهرة مـــن الزنـــوج

(١) الناشر: فيبر وفيبر- لندن - ١٩٥٩- ص٥٢.

الأمريكان كالحدادين والميكانيكية وعمال مزارع الألبان وغيرهم الذين نالوا تدريباً في المدارس المهنية الزراعية في أمريكا وذلك لتدريب المزارعين السودانيين على تلك المهن.ومستر هنت ينتمي إلى ولاية إيداهو بالولايات المتحدة وكان رئيساً لمجلس إدارة كلية الزراعة بجامعة إيداهو. لم يذكر المستر متسكل إن كان الأمريكان السود قد وصلوا السودان بالفعل أم لا.

لقد أعجبت الفكرة المستر ونجت والمستر كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر كما كانت لهم الثقة في إمكانيات المستر هنت الاستثمارية وجديته في المشروع. ولهذا فقد منحته الحكومة الاستعمارية أول امتياز في مجال الزراعة في مساحة تبلغ عشرة ألف فدان في منطقة الزيداب حوالي ٢٥٠ كيلومتر شمال الخرطوم.

وفي سنة ١٩٠٦ تم تركيب أول طلمبة للمشروع وتمت زراعة ٧٠ فدان بالقطن وارتفعت المساحة في ١٩٠٧ إلى ٨٠٠ فدان قطن بالإضافة إلى ٨٠٠ فدان أخرى زرعت قمحاً ولكن الإيرادات لم تزد على المصروفات وبهذا فإن الموسمين الأول والثاني لم يأتيا بأرباح على المستثمر.

كان عدد سكان منطقة الزيداب في ١٩٠٧ حوالي ٦٠٠ مواطن وكانوا يعتمدون على السواقي لري الجروف الضيقة التي يملكونها وعند قيام المشروع الأمريكي كانت علاقات الإنتاج تقوم على العمالة المباشرة ولكن نسبة لانحسار مستوى النيل وارتفاع تكلفة النقل

وزيادة المرتبات والأجور فقد قرر مجلس إدارة الشركة التي سموها "اتحاد المزارع التجريبية السودانية" أن ينهي طريقة الإنتاج القائمة على العمالة المباشرة واللجوء إلى طريقة جديدة هي الشراكة مع المزارعين وتم تقسيم المشروع إلى حواشات وأصبح واجب الشركة هو إمداد الأراضي بالمياه على أن يقوم المزارع بكل العمليات الزراعية.

وفي نفس السنة قام مجلس إدارة الاتحاد بإعادة تنظيمه وسمي "اتحاد المزارع السودانية" وحقق المشروع نجاحا معقولا، أما لي هنت فقد انقطع عن المشروع لانشغاله باستثمارات أخرى خارج السودان وتم إيقاف مكافأته السنوية البالغة ٣٠٠٠جنيه في سنة ١٩٠٦ وفيما بعد تم التفكير جديا في التوسع في زراعة القطن ونشأت فكرة الاستفادة من أرض الجزيرة وتم نقل التجربة من الزيداب إلى طيبة بالجزيرة ثم بدأ مشوار مشروع الجزيرة العظيم.

وفي سياق غير منفصل عن الموضوع أذكر أنه في أواسط سنة ١٩٨٣ قد حدث أن استدعاني نائب السفير بمكتبه بالدور السابع وكان مكتبي في القسم الاقتصادي بالدور الثالث بالسفارة الأمريكية شارع علي عبد اللطيف ووجدت معه شاب أمريكي طويل ونحيل وقدمه لي أنه المستر لي هنت (الحفيد) لذلك المستثمر الذي بدأ زراعة القطن في مشروع الزيداب كما أوضحنا في هذه الخواطر.

قال لي نائب السفير أن المستر هنت حضر للسودان لتكملة كتاب بدأ في تأليفه عن رحلة حياة جده في بلدان كثيرة ومن أهمها السودان وطلب مني أن أساعده في ترجمة شريط صوتي كان قد سجله المستر هنت الصغير أثناء زيارة له لمدينة الزيداب قبل أسبوع من ذلك اللقاء.اتفقت مع المستر هنت للقاء به في غرفته في فندق الأكروبول بشارع الزبير باشا.

عند الاستماع للشريط تبين لي أنه التقى بعدد من شيوخ الزيداب الذين عاصروا المسترهنت وهم شباب وأجابوا على الأسئلة الكثيرة التي وجهها لهم وكان هناك مترجم ولكن الترجمة لم تكن دقيقة ويبدو أنها لم تعجب الخواجة ولهذا استعان بالسفارة لمعالجة موضوع الترجمة.وفعلا وبعد أقل من ساعتين انتهيت من المهمة ونهض المستر هنت مودعا وشاكرا لي وأحسست أنه كان بصدد دفع مكافأة لي ولكني شكرته وقلت أنه عمل بسيط ولكني طلبت منه نسخة من الكتاب بعد طبعه فوعد بإرسال الكتاب وأن يضع اسمي في مقدمة الكتاب ضمن الذين استعان بهم لنشر الكتاب.

وفي الشارع وأنا اقترب من سيارتي اعترضني شاب يحمل ملفا به شهادات ومستندات وسألني إن كان الخواجة الذي كنت معه بالغرفة (كذا) قد حضر للسودانِ للتعاقد مع السودانيين للعمل بالسعودية وقال أنه يحمل شهادات أكاديمية وشهادات خبرة قلت أن الخواجة جاء للسودان لطباعة كتاب فسألني عن اسمه فأخبرته فأردف إن كنت

أعرفه منذ زمن بعيد فابتسمت له ودلفت لداخل السيارة وعندما تحركت لاحظت أنه ينقل في ظهر الملف نمرة العربة فابتسمت مرة أخرى ولوحت بيدي لقد فعل ما كنت أتوقعه!.

وفي مجال علاقة الأمريكان القديمة بالسودان يمكن الإشارة إلى أنهم هم الذين أنشأوا قاعدة وادي سيدنا الجوية والسكنات الملحقة بها وذلك في أوائل الأربعينات من القرن الماضي حينما اشتدت الحرب في الشرق الأوسط وتقدم ثعلب الصحراء روميل قائد الجيش الألماني نحو العلمين في مصر وتصدى له القائد الإنجليزي الفيلد مارشال مونتقمري وفي الحقيقة كانت الجيوش الإنجليزية تحارب في تلك الأيام في جبهتين في ليبيا ضد الألمان وفي الحدود الأثيوبية ضد الطليان فخشي الحلفاء من تدهور الموقف وقام الأمريكان ببناء قاعدة وادي سيدنا وملحقاتها كما أسلفنا كخط دفاع ثاني لجيوش الحلفاء وهذه المعلومة نقلتها عن مصدر عسكري اشترك في الحرب العالمية الثانية والعهد على الراوي، وانتهت الحرب ولم تستخدم القاعدة في أي عمليات عسكرية ثم قررت حكومة السودان الإنجليزية،في أوائل الخمسينات تحويل تلك السكنات إلى مدرسة وادي سيدنا الثانوية.

وقبل أن ينال السودان استقلاله في سنة ١٩٥٦م كانت أمريكا قد أنشأت مكتب اتصال وكان موقعه بشارع المك نمر وكان يديره موظف أمريكي ومعه سكرتيره ومترجم سوداني. ثم تم ترفيع مكتب الاتصال لسفارة كاملة بعد أن بدأت الدول الاعتراف بالسودان الحر المستقل وكان اعتراف الولايات المتحدة الثالث بعد مصر وبريطانيا.

وقد أخبرني المرحوم السيد إبراهيم المحلاوي وزير الثروة المعدنية في أول حكومة بعد الاستقلال وكان نائبا للحزب الحاكم من دائرة عطبرة أخبرني بأنه التقى بضابط الاتصال الأمريكي في حفل عشاء أقامه مدير مصلحة السكة حديد بعطبرة أثناء زيارة قام بها المسئول الأمريكي لتلك المدينة وكان مدير السكة حديد صديقا للسيد الوزير قبل تركه لوظيفته السامية في السكة حديد وترشيح نفسه نائبا عن دائرة عطبرة وقال السيد المحلاوي أن حفل العشاء كان به عدد من الشخصيات الهامة من عطبرة والدامر وقال أن الحديث تطرق لموضوع الاستفتاء على تقرير المصير الذي كان محددا له نهاية عام ١٩٥٥ وكان أن صرح المسئول الأمريكي أن رأيه الشخصي هو أن يتفق السودانيون على الحصول على الاستقلال ثم الاتفاق على نوع العلاقة التي تربطهم بمصر فيما بعد. وقال المحلاوي والذي يشي اسمه عن انحدار نسبه من مدينة المحلا في مصر أنه اعترض على ذلك بشدة وقال أنه من أنصار الاتحاد مع مصر بأسرع ما يمكن وقال السيد المحلاوي أنه نقل ذلك للزعيم الأزهري وأعضاء المكتب السياسي للحزب.

بقي أن أذكر أن السيد المحلاوي كان من أكبر المهتمين بالمعادن والتعدين في السودان وكان له محجر في منطقة تهميم في شرق السودان وكان يتردد على مكتبة القسم الاقتصادي بالسفارة بعد أن ترك الوزارة فيطلع على المجلات والنشرات التي تنشر آخر أخبار التكنولوجيا في عالم المعادن وكان يقول لي أن مكتبتكم بها كنوز من المعرفة ولكن لا يهتم بها إلا أمثاله.

الفصل الثاني : المعونة الأمريكية للسودان نعمة أم نقمة:

نشأت فكرة المعونة الأمريكية لبلدان الشرق الأوسط بعد أن وقفت أمريكا موقفا مخالفا لحلفائها بريطانيا وإسرائيل وفرنسا في حرب القنال سنة ١٩٥٦ حيث لم تشترك في الحرب فيما عرف بالعدوان الثلاثي على مصر. وبعد انسحاب الدول الثلاثة من الحرب بدون تحقيق أهدافهم رأت أمريكا أن فراغا قد نشأ في المنطقة حيث لم تعد بريطانيا وفرنسا تقويان على منافسة المد الشيوعي فيها وحيث كان الشيوعيون – خصوصا في السودان- قد ارتفعت معنوياتهم بعد هزيمة الدول الثلاثة سياسيا على يد مصر بدعم من الاتحاد السوفيتي آنذاك اتسع نفوذ الشيوعيين في السودان حيث تمكنوا في حكومة جبهة الهيئات التي تألفت بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤ ولأول مرة من الحصول على عدد من حقائب مجلس الوزراء ومنهم سكرتير اتحاد عمال السودان ورئيس اتحاد مزارعي الجزيرة في ذلك الوقت.

وتقوم نظرية ملء الفراغ التي جاء رتشارد نيكسون نائب الرئيس الأمريكي حينئذ لتسويقها في المنطقة على أن المشكلة أساسا تنبع من الفقر وانعدام التنمية مما يجعل العمال والمزارعين فريسة لدعاوي الشيوعيين وهكذا بدأ مشروع المعونة في السودان وغيرها من البلدان العربية وكان اسم هيئة المعونة في أول عهدها" بعثة عمليات الولايات المتحدة" "US OPERATION MISSION“ ثم استبدل هذا الاسم لأنه حمال معاني باسم وكالة الولايات المتحدة للتنمية العالمية واختصارها ”USAID“.

وبدأ مشروع المعونة في السودان في أوائل الستينات واشتملت على كثير من المناشط الاقتصادية الزراعية منها والصناعية. ففي مجال الزراعة انتشر خبراء المعونة في محطات الأبحاث بالنشيشيبة بالجزيرة وأبو نعامة والقدمبلية والغزالة جاوزت بدارفور وبالقرب من عطبرة ومناطق أخرى.

وفي المجال الصناعي قامت المعونة ببناء البنك الصناعي بميدان الأمم المتحدة ومبنى وزارة الصناعة بشارع الملك نمر وقامت بالمساعدة في إنشاء معهد البحوث الصناعية بالمقرن وإمداده بالمعينات كما تم ابتعاث عشرات من خريجي وادي سيدنا وخورطقت وحنتوب للحصول على شهادات جامعية من الجامعة الأمريكية في بيروت. أما في مجال الطرق فقد تم رصف أربع طرق تربط الخرطوم بالريف الشمالي والجنوبي وهي طريق الخرطوم بخري الجيلي وطريق أم درمان وادي سيدنا وطريق الخرطوم جبل أولياء وطريق الخرطوم مدني حتى الكاملين .

وحتى في مجال الإمدادات الغذائية قدمت المعونة شحنات ضخمة ومتوالية من القمح والدقيق تحت برنامج ما كان يعرف بالقانون ٤٨٠. وامتدت المعونة للقطاع الخاص فقام مصنع النسيج السوداني الأمريكي بمشاركة من المعونة كما تم تمويل شراء مطابع لصحيفة يومية مشهورة ومصنع للأحذية بالخرطوم بحري بموجب قانون Cooly الذي يشجع تمويل القطاع الخاص من المقابل المحلي بالعملة المحلية.

وكان هناك مقترح من الأمريكان لإنشاء مصنع تعليب اللحوم في نيالا مع توسيع مطار نيالا ليصبح مطارا دوليا ولكن المعارضة لهذا المقترح كانت كبيرة بحسبان أن المطار سيكون قاعدة للجيش الأمريكي في السودان وقد صرف النظر عن المشروع.

وعند اندلاع ثورة أكتوبر سنة ١٩٦٤م وبالرغم مما قدمته أمريكا من معونات انفجرت المظاهرات من فئات مختلفة وبعشرات الآلاف ويقفون أمام مبنى السفارة في وهج الشمس الحارة وهي تهتف "Down Down USA" فلتسقط تسقط الولايات المتحدة. لقد كانت مظاهرات صاخبة ومعبرة وسلمية كما استقبلها الأمريكان في السفارة بصمت وهدوء.

وعندما قامت حرب الأيام الستة في ١٩٦٧ بين مصر وإسرائيل وقف السودان مع مصر ثم تم قطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة كما تم تجميد برنامج المعونة الأمريكية للسودان ولكنه عاد من جديد فيما بعد.

لقد دار كلام كثير حول المعونة الأمريكية بدأ في الولايات المتحدة نفسها حيث تساءل بعض المنتقدين لها عن الحكمة في حرمان الفقراء الأمريكان من هذه المبالغ الطائلة والتي تذهب كمعونة لدول العالم الثالث حيث لا يستفيد منها إلا الأغنياء من الحكام والمستفيدون حولهم من الطفيليين والمفسدين وكذلك يفعلون.

وفي السودان وفي غيره من الدول المتلقية للمعونة ارتفعت أصوات اليساريين على وجه الخصوص بأن المعونة ما هي إلا نوع جديد من أنواع الاستعمار الاقتصادي بعد غروب شمس الاستعمار القديم وأن المبالغ المرصودة للمعونة تذهب جلها للمديرين والخبراء الأمريكان وإجارات منازلهم وعرباتهم وامتيازاتهم. وعلى ضوء ما تقدم ترى هل المعونة الأمريكية كانت نعمة أم نقمة على البلدان التي تأتي إليها؟.

الفصل الثالث : مرحلة انتقالية :

بعد قطع العلاقات مع أمريكا تضامنا مع مصر والبلاد العربية على أثر الحرب مع إسرائيل في ١٩٦٧ ثم إجلاء الأمريكان عن السودان على وجه السرعة بأمر من وزارة الخارجية الأمريكية وكانت نيروبي هي المحطة التي طار لها الأمريكان ثم نقلوا من هنالك للولايات المتحدة وحدثت قصة طريفة في تلك الأثناء حيث كان هناك عددا من إخواننا السودانيين الدناقلة قد حصلوا على الجنسية الأمريكية منذ زمن بعيد بل أن أحدهم كان قد قتل في حرب فيتنام وعندما بدأت عملية الإجلاء من السودان كان القنصل الأمريكي المشرف على عملية تسفير الأمريكان يبحث عن عدد من هؤلاء الأمريكان الدناقلة حيث أن الأمر يشملهم فحضر منهم عدد قليل للسفارة ورفضوا السفر لنيروبي فطلب منهم القنصل التوقيع على وثيقة بأنهم مسئولون عما قد يصيبهم إن هم بقوا في السودان وأن القنصلية ستكون خالية المسئولية بعد توقيعهم على الوثيقة فتراطنوا باللهجة الدنقلاوية التي لم ينسوها طيلة بقائهم في أمريكا ثم وقعوا على التعهد وانصرفوا.

بعد ذلك تم ضم ما تبقى من السفارة الأمريكية والذي سمي بقسم رعاية المصالح الأمريكية للسفارة الهولندية وتم الاستغناء عن جميع الموظفين السودانيين ومنحوا استحقاقهم عن مدة الخدمة التي قضوها في خدمة السفارة.

وبعد شهر تقريبا تم استدعاء عدد من الموظفين لاستئناف أعمالهم بقسم رعاية المصالح الأمريكية بالسفارة الهولندية وكنا ثمانية موظفين تم توزيعنا على الأقسام الاقتصادية والقنصلية وقسم الترجمة بمكتب القائم بالأعمال.

كانت آثار الحرب مدمرة من النواحي الاقتصادية حيث أصبحت السفن الآتية لبورتسودان تأتي عن طريق رأس الرجاء الصالح بدلا من قناة السويس التي أغرقت فيها عدد من السفن ولم تعد صالحة لمرور التجارة وأصبحت البضائع والسلع تأخذ زمنا أطول وبتكلفة نقل مضاعفة. وتم الاتفاق على مواصلة المعونة الأقتصادية للسودان خصوصا شحنات القمح والدقيق بموجب القانون ٤٨٠ كما كانت أمريكا من أكبرالمستوردين للصمغ العربي من السودان فكان استمرار التجارة بين السودان والولايات المتحدة أمرا لابد منه. أما بقية المشاريع التي كانت تمولها المعونة فقد توقفت تماما وعلى رأسها طريق الخرطوم ود مدني الذي تركه الأمريكان عند الكاملين.

وفي سنة ١٩٦٩م حدث انقلاب عسكري يساري في السودان واعترف النظام الجديد بالصين وألمانيا الشرقية وأصبحت علاقاته مع المعسكر الشرقي في ازدهار متطرد فكان لابد أن تسوء العلاقات القليلة المستمرة بين السودان وأمريكا من جديد.

وفي سنة ١٩٧١م قام انقلاب مضاد للزمرة التي قامت بالانقلاب السابق ولكن لم يستمر أكثر من يومين وكان الأخير بقيادة

الشيوعيين الذين أرادوا أن يتخلصوا من القوميين العرب حلفاءهم في انقلاب ١٩٦٩ ومن زملائهم الذين اعتبروهم قد ارتدوا عن المبادئ الماركسية.

وحدثت فوضى وارتباك في الأمن لمدة يومين قبل أن يعود الرئيس نميري لقيادة الدولة من جديد وبدأت مطاردات واعتقالات ثم محاكمات وإعدامات. وفي هذا الجو كان مبنى قسم رعاية المصالح الأمريكية في شارع الجمهورية هدفا لدانات المدفعية العشوائية فكان أن سقطت إحداها في فندق صحارى الملاصق للسفارة ونتج عن ذلك تهشم لزجاج مكاتب السفارة وجرح أحد عساكر المارينز ، وكنت أتجول في حذر في ذلك الجو المشحون بالخطر فلاحظت أن نزلاء الفندق يهرولون بملابس النوم في الشارع ولاحظت الماء المتدفق من خزان المياه في أعلى السفارة يسيل في شارع الجمهورية والجند يحملون السلاح في مجموعات هنا وهناك وبدأ أنه لم تكن هناك قيادة عسكرية تسيطر على الموقف وتصدر الأوامر بحفظ النظام فكان كل رقيب يصدر أوامره لمجموعته حسب مقتضى الحال.

وعندما عدت للمنزل اتصل بي زميل يعمل بقسم الترجمة بمكتب القائم بالأعمال وأخبرني بأن هناك عدد من الأمريكان معزولون داخل مبنى السفارة ويخشون من النزول للشارع والعودة لمنازلهم لخطورة الوضع في المنطقة وأنه عرف ذلك بعد أن اتصل به القائم بالأعمال طالبا المساعدة في الاتصال بوزارة الخارجية السودانية

للقيام بعمل ما لإعادة الهدوء لشارع الجمهورية وقال أن المسئول في مكتب الطوارئ بالخارجية أخبرهم بأنه يعمل ما في وسعه كي يجد مسئولا عسكريا يمكن إصدار الأمر المطلوب ذلك لأن الأمر قد تفاقم لدرجة أنه لم يكن أحد يعرف من المسئولين في تلك الساعات وطلب مني الزميل بأن أحضر لنذهب معا لمحاولة الدخول في السفارة الهولندية وأخذ الدبلوماسيين الأمريكيين إلى منازلهم. فأخبرته بأن تلك مجازفة كبيرة واقترحت عليه أن يحاول الاتصال بمكتب الطوارئ بوزارة الخارجية السودانية ولكنه عاد ليخبرني بأن المسئول بمكتب الطوارئ نصحه بأن نتحلى بالصبر ثم اقترحت عليه أن يتصل باستقبال فندق صحارى ويطلب مسئول الأمن الموجود بالفندق لتقييم الموقف أمام السفارة ونجحت الفكرة فقد طمأننا الضابط المسئول وطلب منا الحضور للفندق وأنه سيصحبنا بنفسه لمدخل السفارة.

وأمام الفندق وجدناه في انتظارنا ولكن سرعان ما أحاط بنا عدد من الجنود المدججين بالسلاح وطلبوا من ضابط الأمن أن يوضح لهم من نحن ففعل وتركونا نصعد للسفارة في الدور الرابع ولم يفتح جندي المارينز الباب الداخلي إلا بعد التأكد من هوياتنا ، وفي داخل السفارة وجدنا أحد عساكر المارينز قد جرح في ذراعه من شظايا الزجاج وأنزلنا الجماعة وكان عددهم أربعة نائب السفير ومساعد له وسكرتيرته وعسكري المارينز الجريح وبقي الآخر لحراسة السفارة من الداخل.

أما في الخارج فكانت المجموعة العسكرية التابعة لنظام نميري الذي عاد للسلطة قد اتخذت وضعا دفاعيا عند مبنى السفارة وما جاورها وتبعنا رجل الأمن وبعض الجنود إلى جراج السفارة في أسفل عمارة أبو العلا ولم ينس رجل الأمن أن يأخذ اسماعنا وأسماء الدبلوماسيين الذين انقذناهم ثم أسرعنا بهم لمنازلهم وعدنا لمنازلنا قبل أن يبدأ حظر التجول. وبعد مدة استدعانا القائم بالأعمال وسلمنا خطابات شكر وتقدير من وزارة الخارجية ثم صدق لكل منا بعلاوة استثنائية.

لقد كان منطلقنا لذلك العمل الجانب الإنساني في المقام الأول دعك من العواقب التي كانت ستنجم إن دمر ذلك المبنى على رؤوس أولئك الدبلوماسيين وحرسهم. إن العمل الدبلوماسي الناجح هو الذي يستطيع الحفاظ على شعرة معاوية في أحلك الظروف.

وفي أوائل ١٩٧٣م عادت العلاقات الدبلوماسية بين السودان وأمريكا ورفع العلم الأمريكي من جديد في مكان علم هولندا الذي ظل يرفرف على المبنى لمدة ستة سنوات وتم ترشيح سفير أمريكي جديد هو المستر كليونويل وكان القائم بالأعمال في مدة قطع العلاقات هو المستر كرتس مور وكان بالإضافة لمسئوليته كرئيس للبعثة الدبلوماسية الإشراف على القسم الاقتصادي أي رئيسا مباشرا لي وقد كان هذا الرجل ذو أفكار تقدمية وكانت تصله مجلة شهرية عنوانها التقدمي "THE PROGRESSIVE" وكان يتحدث العربية بطلاقة وفي

فترة السنوات الستة كسب صداقات كثيرة في المجتمع السوداني وكان يسكن الخرطوم نمرة ١ شرق سوق نمرة ٢.

وعندما وصل المستر نويل السفير الجديد كان المستر مور يحزم حقائبه للسفر منقولا لوزارة الخارجية بواشنطن.

ووصلت دعوات كثيرة للاحتفاء بوداع المستر مور واستقبال السفير الجديد من جهات كثيرة وكان منها دعوة السفير السعودي بمنزله بشارع الملك عبد العزيز بالعمارات بالخرطوم جنوب.

وفي أثناء الحفل وصلت مجموعة ملثمة من الفلسطينيين رأسا من المطار وأحاطوا بالسفير وضيوفه ثم أخذوا المستر مور والسفير القائم بالأعمال الهولندي إلى أحد الغرف وأطلقوا سراح الباقين ثم صعد بعضهم على سطح مبنى السفارة السعودية ووضعوا حراس على الأبواب ثم اتصلوا بالمسئولين في الحكومة السودانية وطلبوا أن تقوم إسرائيل بإطلاق سراح السجناء المحجوزين في سجونها وإلا فإنهم سيقومون بإعدام الرهائن الثلاثة وكان مسئولوا الحكومة يقومون بالاتصال برئاسة المنظمات الفلسطينية وبالملك حسين للمساعدة في معالجة الموقف ثم ينقلون ما توصلوا إليه إلى المجموعة الفلسطينية بالسفارة واستمرت الاتصالات لأكثر من ثلاثة أيام.

وأرسلت الحكومة الأمريكية وفدا للتوسط ولكن الطائرة التي كانت تقل الوفد لم تهبط في مطار الخرطوم واتجهت إلى أثيوبيا. لقد سبق السيف العزل فقد قام المهاجمون بإعدام الرهائن الثلاثة ثم سلموا أنفسهم للسلطات السودانية.

وخرجت جماهير غفيرة في الخرطوم تهتف ولأول مرة ضد منظمة فلسطينية هي منظمة أيلول (سبتمبر) الأسود فكان المتظاهرون يهتفون "أسود... أسود يا أيلول". لقد كانت مشاعر الجماهير تعبر عن شجبهم لقتل دبلوماسيين هم على كل حال ضيوف على السودان حيث كان الحادث محرجا للسفارة السعودية والسودان.

ولكن الفلسطينيين كان لهم منطقهم بأنهم قوم مشردون وأن أي بقعة في الوطن العربي هي حلال عليهم وأن المستر مور الذي قتلوه كان يدير معارك الفلسطينيين مع السلطة الأردنية من السفارة الأمريكية بالأردن، وأن الإسرائيليين لو أفرجوا عن السجناء الفلسطينيين لما كان ما كان.

كنت في تلك الأيام في الإجازة السنوية وقد تأسفت لمقتل المستر مور وأصحابه مثلما أتمزق حزنا على الضحايا من الفلسطينيين الذين أخرجوا من ديارهم وأوذوا وقاتلوا وقتلوا منذ ١٩٤٨ والذي شردوا في أصقاع الدنيا وقد ظاهرت بريطانيا وأمريكا عليهم وبدعم سياسي وعسكري لا حدود له ولكن العلاقة الإنسانية التي جمعتني بالمستر مور في أيام قسم رعاية المصالح الأمريكية لسفارة هولندا

جعلتني افتقده كإنسان ، وفي هذا السياق تحضرني قصة الجنازة التي مرت محمولة على الأعناق أمام الرسول صلى الله عليه وسلم فنهض على قدميه فقال له الصحابة – إنها ليهودي- قال أو ليس بإنسان .

قلت أن المستر مور كان ذا أفكار تقدمية وكان حينما يجاذبنا أطراف الحديث نستغرب هل أفكاره تلك كانت تعبر عن المصالح الأمريكية كما أن المجلة التي يطالعها كل شهر كانت تشمل أفكارا أقرب لليسار منها لليمين. وعند حضوري من الإجازة وجدت خطابا شخصيا من المستر مور "صورة في الصفحة التالية" وهي رد على الخطاب الذي أرسلته له مودعا بمناسبة عودته للولايات المتحدة ولعلى ذلك كان آخر خطاب كتبه قبل مقتله. لقد توثقت علاقته مع موظفي السفارة وقد زارتني حرمه بالمنزل وقدمت هدايا للتوأمتين اللتين رزقتهما في تلك الأيام.

وفيما بعد كتبت إحدى الجرائد الأمريكية أن المستر كرتس مور الذي قتل بالخرطوم اسم مشابه لجورج مور الذي كان يعمل بالسفارة الأمريكية بالأردن قبل سنوات من أحداث أيلول الأسود.

لقد تمت محاكمة مجموعة أيلول الأسود أمام القضاء السوداني وحكم عليهم بالإعدام في المحكمة الابتدائية وخففت المحكمة العليا الحكم للسجن المؤبد ثم أصدر رئيس الدولة آنذاك قرارا بتسليمهم لمنظمة التحرير الفلسطينية ليقضوا مدة الحكم في سجونها.

الفصل الرابع : في غرب أفريقيا:

في أوائل سنة ١٩٧٤م تم ترشيحي لحضور حلقة دراسية تنظمها وزارة التجارة الأمريكية في أبدجان بساحل العاج وفي الحقيقة كانت هناك حلقتان في كل من أبدجان في غرب أفريقيا وملاوي في شرقها وكان المفروض أن أذهب للحلقة التي في شرق أفريقيا حسب الموقع الجغرافي ولكني وممثل لي في السفارة الأمريكية بأديس أبابا ظهرت أسماؤنا ضمن المنتسبين لحلقة غرب أفريقيا.

ووجدت صعوبة شديدة في الحصول على تأشيرة الدخول لساحل العاج فلم يكن لتلك الدولة سفارة بالخرطوم وكنا نتصل بالسفارة الفرنسية بالخرطوم وهي ترعى مصالح جميع دول الفرانك فون (المستعمرات الفرنسية السابقة) ولكن بدون جدوى. وأخيرا وصلت برقية من السفارة الأمريكية بساحل العاج تؤكد منحي للتأشيرة عند الوصول لمطار أبدجان.

وفي المطار المذكور لم أجد التأشيرة ولم أجد ممثل للسفارة في استقبالي وطلب مني المسئولون بمطار أبدجان أن أعد نفسي للعودة من حيث أتيت على الخطوط الأفريقية Air Africa التي عليها أن تتحمل المسئولية وفجأة ظهر ممثل السفارة في المطار وأكمل إجراءات التأشيرة بسرعة ثم أخذني إلى الفندق الذي ستبدأ به الحلقة في اليوم التالي داخل المدينة.

وفي الفندق وجدت أن شريكي في الغرفة هو ذلك الصديق الأثيوبي والذي حضر معي في نفس الطائرة ولكنه لم يجابه بأي مشكلة في الدخول.

كانت مجموعة المحاضرين الذين أتوا من واشنطون يمثلون وزارة الخارجية والتجارة والمعونة الأمريكية وبنك التصدير والاستيراد الأمريكي.

وشملت المحاضرات والتي استمرت لمدة خمسة أيام العلاقات التجارية بين أمريكا وأفريقا ودور المعونة الأمريكية في التنمية في أفريقا والسياسات الاقتصادية وغيرها ، وكان المنتسبون للحلقة من بلدان غرب أفريقيا كليبريا والكاميرون والسنغال ومالي وغانا ... الخ.

كنت وصديقي الأثيوبي نتجول في الأمسيات في شوارع أبدجان الجميلة وكنا نذهب للمينا حيث نشاهد السفن وهي تحمل الموز والكاكاو وهما من أهم صادرات ساحل العاج كما كنا نتناول وجبات خفيفة ونجلس في إحدى الحدائق الغناء المطلة على المحيط الأطلسي.

وقبل أن تنتهي الحلقة ونحن نتجول في أحد الشوارع توقفنا تحت شجرة ضخمة ظليلة وكانت أمام مبنى له باب أسود عريض واقتربت من الباب لأقرأ اللوحة الصفراء الصغيرة وأصبت بشعور غريب لقد كان مكتوب على اللوحة "EMBASADE D'ISRAIL" السفارة الإسرائيلية.

فابتعدت ولاحظ الصديق الأثيوبي ذلك الموقف وسألني عما بي فقلت له إنني أول مرة أقف أمام سفارة لإسرائيل فضحك متعجبا وقال أن هناك سفارة كبيرة لإسرائيل في أثيوبيا فسألته إن كان متابعا للصراع بين العرب وإسرائيل فقال أنه لم يهتم لذلك كثيرا.

في تلك اللحظة اقترب شاب من ساحل العاج كنا قد لاحظنا أنه يتبعنا أينما نذهب وقال لنا لابد من الرجوع للفندق لأنهم سيحتفلون بنهاية الدورة في ذلك المساء فرجعنا وارتدى كل واحد منا الزي الوطني واستلمنا من السفير الأمريكي لساحل العاج شهادات حضور الحلقة.

وفي اليوم التالي حضر ممثل السفارة الذي كان قد استقبلني عندما وصلت ورافقني للمطار وتمت إجراءات المطار بسهولة، وقبل أن أودعه سألته عن الشخص الذي كان يتبعنا أثناء اقامتنا بساحل العاج فضحك وأخبرني بأنه كان يتبعني شخصيا وذلك كان شرطا لمنحي تأشيرة الدخول أي أن أكون تحت المراقبة حتى أغادر ساحل العاج وفي الطائرة اكتشفت أن جوازي لم يوضع عليه أي ختم أو توقيع من مسئولي مطار ساحل العاج ...نعم وكأننا يا عمرو لا رحنا ولا جينا.

وفي الطائرة وفي طريق العودة وجدتني في صحبة المجموعة القادمة من واشنطون في طريقهم لملاوي في شرق أفريقيا حيث ستعقد الحلقة مرة أخرى كما أسلفت. وكان يجلس في المقعد الملاصق لي أحد المحاضرين وسألني عن انطباعي عن الحلقة فأخبرته أنها كانت

ناجحة ومفيدة وسألني عن السودان والأمريكان الذين قتلوا في السفارة السعودية فشرحت له كل شيء وسألني عن خدمتي بالسفارة وإن كنت أنوي أن أهاجر لأمريكا مستفيدا من مدة خدمتي التي تؤهلني على الحصول على الإقامة في أمريكا فأجبته بأنني أفضل البقاء في بلدي والاهتمام بتربية أبنائي على هدى الدين الإسلامي والعادات والتقاليد السودانية السمحة فهز رأسه ثم راح في غفوة قصيرة مستيقظا على هبوط الطائرة في مطار أكرا.

وفي مطار أكرا بغانا كان علي أن أبقى بالمطار لمدة سبعة ساعات في انتظار طائرة الخطوط الجوية الأثيوبية التي ستحملني عن طريق عنتبي في يوغندا وأديس أبابا إلى الخرطوم، واستلقيت على أحد الأرائك ببهو صالة "الترنزيت" وأخذت أتصفح بعض الجرائد حين وقف أمامي شاب غاني وسألني إن كان اسمي كذا من السودان فأجبته فسلمني دعوة عشاء من الملحق التجاري بأكرا في نفس المساء فأجبته بأنني أشكره ولكني ليس لدي تأشيرة لدخول غانا، وأنني في انتظار الطائرة المتجهة إلى السودان، فابتسم وقال أن السفارة الأمريكية قد رتبت موضوع دخولي لأكرا بتأشيرة خاصة مؤقتة لحضور حفل العشاء.

وفي الطريق كان الأخ الغاني يلفت نظري للمباني والمعالم الغانية في أكرا وأهمها مبنى منظمة الوحدة الأفريقية الغاني والذي بني على فن معماري أخاذ ومعلوم أن أثيوبيا كانت قد فازت باستضافة مقر رئاسة منظمة الوحدة الأفريقية وكانت غانا هي المنافسة الرئيسية لها.

وفي حفل العشاء وجدت أنهم قد رتبوا الجلوس بحيث كان مقعدي بين الملحق التجاري الأمريكي بأكرا وصديقي الذي كان بجواري بالطائرة وكان يجلس في صدارة المائدة السفير الأمريكي لغانا يقابله رئيس بعثة المحاضرين. لقد كان الحفل معدا مقدما لمجموعة واشنطون ولكن يبدو أن صديقي بالطائرة قد أخبرهم بأني موجود بالمطار وأنه من الأليق أن انضم إليهم في حفل العشاء كموظف تابع لوزارة الخارجية الأمريكية.

وكانوا يتحدثون في شتى المواضيع ولم اشترك معهم كما كنت أتناول الطعام بقدر يسير فلاحظ ذلك الملحق التجاري وحثني على أن استزيد من الطعام.

ثم فجأة وبدون مقدمات سألني السفير عن حقيقة ما حدث في السفارة السعودية ومرة أخرى كنت أشرح وأكرر بأنه ولأول مرة يخرج شعب من أصل عربي مظاهرا ضد منظمة فلسطينية وأكدت بدون وجل بأن موقف الشعب السوداني في مساندته لفلسطين ثابت وموثق في أضابير الأمم المتحدة وأن السودان قد أرسل متطوعين منذ سنة ١٩٤٨م لمساندة أخوتهم الفلسطينيين. ومرت فترة صمت قطعها صديقي المجاور وقال أن قتل دبلوماسيين عزل لا يمكن تبريره على أي حال.

وجاء الشاب الغاني وهمس في أذن الملحق التجاري وعلمت أن الأمر يخصني فسألت ما الخبر فأخبرني ضابط العلاقات العامة الغاني بأن اسمي غير مدرج في كشف الطائرة الأثيوبية التي كانت

ستهبط بعد قليل فأكدت له أن التذكرة التي بيده مختوم عليـــــها "OK" فابتسم وقال لا تهتم أنا سأعالج الموضوع عندما نذهب للمطار ولكـــن الملحق أخبره بأنه إن لم يتسير لي السفر في الطائرة فـــإن عليـــه أن يحجز لي في هلتون أكرا ويبرق الخرطوم.

وبعد ساعة من الزمان كنت مرة أخرى على متن الطائرة التي لم يجد ذلك الصديق الغاني أي مشكلة بشأنها في المطار. وفي الطائرة وجدت الفريق الغاني وكان في طريقه للخرطوم لملاقاة فريق المريـــخ وكنت أحمل هاند باق مطبوع عليها الخطوط الجوية السودانية فســألني أحد أفراد الفريق الغاني إن كنت سوداني ، فلما عرف الحقيقة أســـرع وأحضر المدرب وأجلسه في جواري وأخذ هذا يسألني عـــن المريـــخ والخطة التي يلعب بها وأخطر اللاعبين وهلمجرا، فلما انتهى أخبرتـــه بأن اهتمامي بكرة القدم محدود وأنه لن يجد ضالته عندي. وهكذا عدت للخرطوم بعد أسبوع قضيته في غرب أفريقيا.

الفصل الخامس : ازدهار العلاقات التجارية :

في السنين الوسيطة من السبعينات ازدهرت العلاقات بين أمريكا والسودان في النواحي التجارية وزار السودان وفود من الكونجرس الأمريكي ومن جمعيات مختلفة ووفود متخصصة ، وكان من بينها وفد اتحاد مربي أبقار الفريزيان والذين عقدوا ندوة علمية بنادي البياطرة بشارع واحد بالعمارات بالتعاون مع نقابة البياطرة وجامعة الخرطوم وقام الوفد بزيارة لمشروع السليت بشرق النيل وكان حينئذ تحت التأسيس وكان مخططا له أن يشمل مزارع لتربية الأبقار.

وقد ذهبت مرافقا للوفد الأمريكي تلبية لدعوة من أصحاب مشروع السليت وكنا نستغل إحدى عربات السفارة ، وفي نهاية شارع الجامعة تعطلت العربة وكان موعد الاحتفال قد اقترب وأرسلنا إشارة للمسئول الموجود بالسفارة لإرسال عربة أخرى ولكن العربة تأخرت فسألني رئيس الوفد الأمريكي هل يمكن استئجار عربة قلت نعم. وأوقفت أحد البكاسي "البرنس" وانحشر الخواجات السبعة داخل البوكس وانطلقنا لحلة كوكو والغبار يعج خلف البوكس فلم يكن شارع الأسفلت قد اكتمل آنذاك وأخذ الخواجات يمرحون ويأخذون صورا لأنفسهم وهم داخل البوكس ولكننا وصلنا في الزمن المحدد حيث استغرب الحضور من الخواجات الذين أخذوا يقفزون من داخل البوكس. وفي العودة كانت عربة السفارة قد وصلت ولكن أحد الخواجات أقسم أن تلك كانت ألطف رحلة يقوم بها على الإطلاق،

وعندما عادوا للولايات المتحدة أرسلوا خطاب يشكرون فيه الملحق التجاري وطلبوا منه أن يبلغني تحياتهم وقد أثنوا على تلك الرحلة الغبارية من الخرطوم لمشروع السليت.

وفي زيارة مع وفد تجاري أمريكي آخر كان على موعد مع أحد البيوتات التجارية بالسوق العربي صاح أحد الأمريكان متعجبا من العربة التي يجرها حصان محملة ببعض السلع فأخبرته أنها عربة كارو فعلق قائلا أنه لأول مرة يعرف فكرة تحديد قوة الماكينة بالحصان.

هذا وقد بلغت العلاقات الاقتصادية ذروتها بتأسيس المجلس السوداني الأمريكي لرجال الأعمال المكون من عشرة أعضاء من اتحاد أصحاب العمل السوداني ومثلهم من اتحاد مشابه في أمريكا وكانت مهمة المجلس المحلي استكشاف آفاق العمل المشترك وإزالة العقبات أمام انسياب التجارة ومجالات الاستثمار الأمريكي في السودان. وفي تلك الأيام جاءت شركة شفرون وقامت باستكشافات في غرب وجنوب السودان لاستخراج البترول وتوصلت لنتائج إيجابية للغاية ولكن الشركة انسحبت فيما بعد من السودان لظروف ليس هذا مجال عرضها.

إن هناك أوجه تشابه كثيرة بين السودان والولايات المتحدة من حيث المساحة وتنوع المناخ ووفرة المياه والتركيبة المحصولية

كالقطن والفول السوداني والقمح وتربية الماشية ...الخ. ولهذا فإن الخبرات السودانية في المجال الزراعي الذين نالوا تعليما عاليا في أمريكا قد ساهموا بصورة باهرة في التنمية الزراعية في السودان.

إن واجبات الملحقين التجاريين في جميع السفارات متشابهة وهي العمل على دفع العلاقات التجارية والاقتصادية للأمام والتصدي للمشاكل التي تعوق السياسات التجارية ورفع تقارير لحكوماتهم مدعمة بالإحصائيات عن سير العمليات التجارية والاقتصادية، ولهذا يسعى الملحقون التجاريون لتأسيس علاقات حميمة مع المسئولين في الوزارات المرتبطة بالعمل التجاري والاستثماري ومع الجهاز المصرفي والقطاع الخاص والتنظيمات النقابية كاتحاد أصحاب العمل وغيره. كما يقومون بتشجيع إرسال وفود من البلد المضيف لبلادهم ويستقبلون الوفود القادمة من بلادهم لنفس الغرض. ومن أهم واجبات الملحقين حل بعض المشاكل التي تنشأ بين شركة محلية وأخرى في البلد الذي يمثله.

وفي هذا السياق أذكر أن شركة أمريكية تقدمت بشكوى ضد إحدى البيوتات التجارية السودانية وذهبت مع الملحق لزيارة تلك الشركة وكان صاحبها رجل عصامي ولكنه لم يدخل أي مدرسة ومع ذلك كان من أنجح رجال الأعمال وكان عطاؤه في المجال الاجتماعي كبيرا مما جعل إحدى الجامعات تمنحه الدكتوراه الفخرية.

وأثناء مناقشة الملحق له في المشكلة القائمة كانت إجابات الرجل قاطعة ومنطقية وكنت أقوم بالترجمة فقال لي الملحق أخبره بأنه رجل أعمال ممتاز وأنه اقتنع بحججه وأنه سيكتب بذلك للشركة الأمريكية فكان رد عمنا رجل الأعمال السوداني "يا أخي أنت قايل أنا زول ساهل أنا دكتور" فضحكنا وانتهت الزيارة.

وحادثة أخرى حيث جاء أحد رجال الأعمال السودانيين - يرحمه الله- وأبلغ الملحق بأنه منافس في عطاء كبير كوكيل لإحدى الشركات الأمريكية وأن المنافسة انحصرت بين الشركة التي يمثلها وشركة سويسرية وأنه جاء للملحق لاستكشاف إمكانية تأثيره في هذا العطاء وأضاف رجل الأعمال بأن شقيق المسئول الذي أمامه العطاء يعمل مساعدا لكم ثم ذهب رجل الأعمال واستدعاني الملحق وأخبرني بالموضوع وزاد أنه أخبره بأنه لا يمكن أن يساعد في هذا الموضوع فسألت الملحق إذا لماذا استدعاني قال لأخذ رأيكم فأجبت أن أخي فعلا هو وكيل وزارة التخطيط ولكنني أفضل أن أفقد وظيفتي على أن أفقد أخي فنهض الملحق وقال أنه لم يكن ليطلب مني شيئا من هذا القبيل لأنه يعرفني جيدا من سلوكي معه في العمل ومن التقارير التي وجدوها في ملف خبرتي وأنهم كدبلوماسيين لا يحق لهم التأثير على أعمال الدولة المضيفة.

إن حرية التجارة في أمريكا محمية بالدستور كما أن النواب في الكونجرس الأمريكي يساندون رجال الأعمال في الدوائر التي يمثلونها ، فقد حدث أن اشترت الخطوط الجوية السودانية طائرتين من

طراز بوينج وكان عقد الشراء على طاولة التوقيع بين وكيل الشـــركة الأمريكية والمسئولين في الدولة عندما وقعت حوادث السفارة السعودية المذكورة آنفا وجاء توجيه للملحق بأن يطلب من وكيل الشركة تـأجيل توقيع الاتفاق، وفي اليوم الثاني وصل توجيه آخر للملحق بتوقيع العقد وعلمنا فيما بعد أن شركة بويـــنج لجأت للنائب عنها في الكونجـــرس الذي اتصل بوزارة التجـــارة الأمريكية فكان توقيـــع الاتفاق رغمـــا عن الظروف السياسية غير المواتية.

الفصل السادس : في بلاد العم سام :

وصلت واشنطن في أبريل ١٩٧٨ ضمن ممثلين للسفارات الأمريكية في ست دول أفريقية وكان الغرض من الزيارة التي نظمتها وزارة الخارجية الأمريكية هو تنويرنا عن مهام وزارة الخارجية والتجارة وغيرها ، ثم أخذنا في رحلة تعريفية في أنحاء الولايات المتحدة، وفي إطار ذلك البرنامج قمت بزيارة تسعة ولايات أمريكية بناء على اختيار الملحق التجاري في الخرطوم حيث كانت تلك الولايات تنتج سلع ومعدات لها ارتباطات بالصادرات الأمريكية للسودان أو الصادرات السودانية للولايات المتحدة.

واجتمعت بالمسئول عن السودان في وزارة الخارجية حيث قدم لي توجيهات بخصوص الرحلة داخل أمريكا وشرح لي مهمة مكتبه في دفع العلاقات بين الولايات المتحدة والسودان وحدث نفس الشيء مع المسئول عن السودان في وزارة التجارة.

ثم قدمت لنا المشرفة على البرنامج جدول السفريات والتذاكر وكيف أن مسئولي المكاتب الفرعية سيستقبلونا عند وصولنا في كل مدينة نصل إليها ثم أوضحت لنا أنه قد تصلنا دعوات إكرامية من هيئات وجمعيات في المدن التي سنزورها ، وهذه الجمعيات تهتم بالزوار الآتين من خارج الولايات المتحدة من أجل التعارف وتوثيق الصلات الاجتماعية وأنه من الأفضل قبول تلك الدعوات لأنها ستعرفنا بالحياة الاجتماعية الأمريكية من قرب.

وتوجه كل منا إلى الولايات التي سبق أن اختارها وأنا لا أريد أن أصف تلك الرحلات كلها ولكن سأركز على بعض الحوادث التي أحث أنها تستحق الوقوف عندها وبدون ذكر لاسم الولاية المعنية.

ففي مطار ولاية تشتهر بزراعة القطن متوسط التيلة وجدت المسئول عن زيارتي في مطار الولاية وهو يحمل صورتي كي أتعرف عليه ، وبعد الاجتماع في اليوم التالي مع رئيس المكتب الفرعي لوزارة التجارة صحبني في جولة حول مزارع القطن كما زرنا بعض الشركات التي تعمل في مجال تصدير المعدات الزراعية وكانت المفاجأة أن أخذوني لزيارة حاكم الولاية والذي بعد الإكرام سلمني شهادة بأني أصبحت مواطنا لولايته، فشكرته وقلت له أرجو أن يأتي في زيارة للسودان حيث سيجد كل التكريم في السودان ، ثم عدت مع المرافق للفندق.

ثم سافرت لولاية أخرى وفي المكتب الفرعي لوزارة التجارة سلموني برنامج مقابلات في المدينة الكبيرة ومن ضمنها كان علي أن أقابل مدير فرع أحد البنوك فوجدت أن أحد المديرين كان من المملكة العربية السعودية وأنه مساهم كبير في البنك وبعد انتهاء الزيارة أحضر لي المدير الأمريكي صورة لشيك من بنك السودان موقع عليه مسئول كبير بالاتحاد الاشتراكي بدلا عن توقيع مدير بنك السودان ولكن التوقيع الثاني كان لمسئول ببنك السودان وسألني المدير الأمريكي إن كنت أعرف الشخص صاحب التوقيع الأول فأخبرته أنه

لا علاقة له بالجهاز المصرفي ولكن شمولية الحكم في السودان تجعل أي مسئول أن يتوهم بأنه يحق له التوقيع بالرغم مما يكون في ذلك من تعارض من الممارسات المصرفية العالمية أو ما قد يجره من سمعة على السودان. فقال المدير أن هذا الشيك قدمته إحدى الشركات الأمريكية التي صدرت معدات طرق للسودان وأنها استلمت عددا من الشيكات المماثلة لتغطية تسديد أقساط الصفقة، وكان الغرض من تقديم الشيكات للبنك المذكور هو أن يقوم البنك بخصم الشيك Discount أي أن يدفع أقل من مبلغ الشيك بنسبة متفق عليها للشركة فورا ويحتفظ بالشيك لحين حلول أجله ليستلم المبلغ كاملا.

وعندما عدت للسودان التقيت بمحافظ بنك السودان حينئذ فأخبرني بأن بنك السودان تضرر كثيرا وبالتالي كل السودان من مثل تلك الممارسات.

وفي ولاية في الغرب الأوسط الأمريكي حضرت ندوة في الغرفة التجارية بالمدينة الكبيرة وكانت الندوة لرجال الأعمال بإشراف ممثلين للحكومة الأمريكية وكان الموضوع مسودة قانون أمام الكونجرس يفرض بموجبه عقوبات على الشركات الأمريكية التي تمتثل لقانون مقاطعة إسرائيل الذي أقرته الجامعة العربية أيام كانت الدماء تجري في عروقها. وكان رجال الأعمال الأمريكان يناقشون القانون ويدعون أنه مخالف لحرية التجارة المكفولة بالدستور ودار نقاش طويل مستفيض وممثلي الدولة يدافعون عن مسودة القانون. ثم

طلب الإذن بالحديث رجل أعمال أمريكي عجوز وقال أنه تاجر بن تاجر ابن تاجر وأن جده أوصى والده وإن والده نصحه بأن يتعامل مع الزبون الذي يملك المال وقال لماذا نعطل تجارتنا من أجل إسرائيل في حين أن السوق العربي في السعودية والكويت والإمارات مفتوح لهم وقال أنه لا يعترض على مساندة أمريكا لإسرائيل ولكن يجب أن لا يكون ذلك على حساب حرية التجارة ومصالح رجال الأعمال الأمريكيين، وعندما انتهى من حديثه صفق التجار كثيرا، ووجدتني أصفق معهم بالرغم من أنني كنت أحضر الاجتماع كضيف ومراقبا بل وموظف تابع لوزارة الخارجية الأمريكية.

ما زلنا في سياق الزيارة للولايات المتحدة والتي امتدت لأكثر من شهر. ففي أحد الفنادق التي كنت أنزل بها وكنت أتناول وجبة الافطار كان يجلس بالقرب مني رجل أمريكي وزوجته وكانا من كبار السن وكانا يسترقان النظر إلي ثم ينشغلان بتناول الطعام عندنا التفت نحوهما. وأخيرا قال الخواجة "هلاو" واستأذن أن يسألني فأومأت برأسي موافقا قال هل أنت أمريكي؟ قلت لا والتفت لزوجته وقال ألم أقل لكي ثم سألتني الزوجة من أي بلد إذا؟ قلت السودان فأخذا ينظران لبعضهما دليلا على حيرتهما عن هذا "السودان" فأضفت من أفريقيا فرد الخواجة لقد فهمت أليست أفريقيا بالقرب من البرازيل فأخفيت ضحكتي وقلت له هل تعرف مصر والإهرامات هل سمعت عن نهر النيل فقال لا ولكن حدثني عنها فأخذت أشرح وأكرر وأخذت أرسم

على ورقة أمامي حتى تيقنت أنهما فهما بعض ما أقول ثم سألني لماذا حضرت لأمريكا، فأوضحت لهما السبب فسألتني الزوجة هل الرحلة من السودان إلى أمريكا والإقامة في هذا الفندق على حساب حكومة السودان فأجبت أنها على حساب الحكومة الأمريكية فتسائل الرجل لقد قلت أنك ليس بأمريكي فلماذا تتحمل الحكومة الأمريكية كل ذلك؟ قلت لأنني أعمل في السفارة الأمريكية في الخرطوم فسألت الزوجة ولماذا لا تستخدم السفارة الأمريكية بالخرطوم مواطنين من أمريكا بدلا من السودان؟ فأجبت أن للسودان سفارة في أمريكا في واشنطون وبها موظفين أمريكان ويبدو أنهما لم يقتنعا فودعاني وأخبراني أنهما ينزلان بنفس الفندق وأنه يسرهما أن نلتقي مرة أخرى، ولكنني غادرت الفندق في اليوم التالي.

وفي ولاية أخرى مزدحمة بالأمريكيين السود وصلتني دعوة للعشاء مع إحدى العوائل، ووجدت المضيف مسئولا كبيرا في مرفق من مرافق الولاية ، وكان المدعوون معي من أصدقائه الأمريكيين السود ، وبعد أن رحب بي وقدمني للحاضرين لاحظت أنه يقرأ من ورقة في يده عن ميلادي في السودان ومراحل تعليمي ومدة خدمتي مع السفارة فعلمت فيما بعد أن الجمعيات التي استضافتني أيضا في ولايات أخرى وصلتها نشرات من المشرف على البرنامج بواشنطون عن سيرتي الذاتية المتواضعة لتعريف المجتمع الأمريكي المصغر الذي يحضر تلك المناسبات بالضيف القادم من وراء البحار. وكما

أسلفت فإن في أمريكا تقليدا أحسب أنه طيب وهو التعرف على المجتمعات البعيدة عن أمريكا بواسطة الضيوف القادمين منها.

وبعد أن انتهى المضيف من تعريف الحاضرين سألني إن كانت لي إضافة فتحدثت باقتضاب عن السودان والذي كان بالنسبة لهم مجهولا كما هو حالهم نحو كثير من بلدان وشعوب العالم الثالث.

وتطرق الحديث لأفريقيا السوداء فلاحظت حماسة الحاضرين فهم يعتقدون أن أفريقيا هي وطنهم الأصلي وتحدثنا عن فلم الجذور والكاتب ألكس هيلي. ثم سألوني عن عيدي أمين والذي كان في ذلك الزمان رئيسا لدولة يوغندا وأبدوا إعجابا عظيما به وقالوا أنه لقن الرجل الأبيض درسا لن ينساه في يوغندا وأنه من أعظم الحكام في العالم ، وطبعا لم اتفق معهم وأخبرتهم بأنه عكس صورة مشوهة عن الإسلام ولكنهم لم يأبهوا بالإسلام وكان الجانب العنصري طاغيا على حماسهم.

وسألني أحدهم وكان قد أفرط في شرب الخمر، وبالمناسبة فإنهم تعجبوا لأنني كنت أتناول البيبسي كولا فقط. قال السائل كم عدد الدول العربية قلت حوالي عشرين. فقال كيف تتغلب عليكم إسرائيل في كل حروبها معكم وأنتم مئتي مليون وهم لا يزيدون عن مليونين فاعترض المضيف على السؤال وحاول أن ينتقل بالحديث لموضوع آخر ولكني التمست منه الإذن بالرد على السؤال وقلت أن لإسرائيل

رئيس دولة واحد ونحن لنا عشرون رئيس دولة معظمهم جاءوا للحكم بالوراثة أو بطريق القهر ولإسرائيل وزير دفاع واحد ولنا عشرون وزير دفاع ولإسرائيل قائد واحد للجيش ولنا عشرون قائدا للجيوش فحرية القرار والحركة بالنسبة لهم تحتاج لساعات، أما نحن فلا يتم التحرك إلا بعد أيام وربما أسابيع ، هذا إذا اتفقوا أن الأمراء والعمداء يشغلون جسرا أمام بحر الأمة المتلاطم الذي كان من الممكن أن يغرق أعداءه أينما كانوا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن إسرائيل مدعومة دعما مباشرا وعن طريق جسور جوية من أغنى وأقوى دول العالم الغربي وهم أعلنوا أنهم سيحافظون على قوة إسرائيل لتكون أقوى من الدول العربية مجتمعة.

وقبل أن يعلق السائل المخمور قال المضيف يجب أن لا نفسد هذه الجلسة بالحوار السياسي ودعونا نسمع من ضيفنا عن عاداتهم وثقافاتهم في أفريقيا.

وأخذت أتحدث لهم عن ذلك بدون إسهاب، وفي النهاية شكرت المضيف على كرمه وعلى تلك الفرصة التي هيأها للالتقاء بأخوة لنا جذورهم من أفريقيا.

أما الزيارة السرية الغامضة فقد تمت في إحدى الولايات حيث حضر لي بالفندق في صباح باكر مرافقي من المكتب الفرعي لوزارة التجارة وانطلق بعربته حتى خرجنا إلى فضاء كبير خارج المدينة،

وبعد نصف ساعة تقريبا كنا قد وصلنا إلى مطـــــار صغـــير، وبعـــد الإجراءات الأمنية العادية دلفنا إلى ركن قصي بالمطار حيث كانت في انتظارنا طائرة مروحية، وبعد مدة ليست بالقصيرة هبطنا فـــي فنـــاء واسع وكان واضحا أنه مصنع هام وخطير فقـــد ازدادت الإجــراءات التفتيشية وعلقوا على صدر كل منا ديباجة صفـــراء وركبنـــا عربـــة صغيرة مكشوفة توقفت بنا أمام أحد الأبـــــواب العريضـــة ، وهنـــاك استبدلت الديباجات بأخرى حمراء وفي نهاية المطـــاف وصلنـــا إلـــى جملون طويل بداخله معدات وماكينات وكثير من العمـــال بخوزاتـــهم الحديدية على رؤوسهم وكانت الحركة دائبة وأصوات الماكينات تعلـــو على حديثـــنا ونحن نتـــوجه نحـــو المسئـــول بذلك المصنع الحربي.

وبعد الاستقبال والضيافة قال المدير الشاب لقـــد علمنـــا بـــأن السودان تسلم عدد من طائرات FE6 وبما أن هذه الطائرات لـــم تعـــد تستخدم حيث تم تطوير هذا الطراز من الطائرات بأجيال حديثة مـــن طراز الشبح، فإن السودان قد يجد صعوبة في الحصول على صواريخ لتلك الطائرات التي تسلمها وأنهم لهم مخزون من تلـــك الصواريـــخ. وعندما انتهى من حديثه وجدني مشدوها وأنا لا أصدق ولا أفهم مـــا يقول وتساءلت في نفسي لماذا وضعت هذه الزيارة في برنامج رحلتـــي المرتبطة بالتبادل التجاري المدني بين الولايات المتحـــدة والســـودان؟ وبعد صمت أخبرت المضيف بأن مشتريات القوات المسلحة تتم عـــن طريق مكتب مشتريات تابع لرئاسة القوات المسلحة وأن المعاملات في هذا الصدد ربما تتم عن طريق الملحق العسكري.

ثم عدنا للفندق بعد عبور نفس نقاط المراقبة والأمكنة التي مررنا بها في صباح ذلك اليوم .

وفي ولاية أخرى التقيت بمجموعة من المسلمين السود حيث عرفني بهم صديق باكستاني ويسمون مجموعتهم البلاليون نسبة للصحابي الجليل بلال بن رباح.

وكان لهم مركز إسلامي صغير في الدورين الرابع والخامس من عمارة في وسط المدينة حيث يوجد مكتب استقبال ومضيفه في الدور الرابع، وفي الدور الخامس كان هناك مسجد صغير مزخرف بالآيات وسور الكعبة والحرم المدني.

وعندما التقيت بهم مع صديقي الباكستاني حيث تم التعارف وكانوا في غاية السرور وعلمت أنه كل ما جاءهم مسلم من بلاد الشرق يحتفون به ويكرمونه ولكن قبل ذلك يطلبون منه أن يعظهم ويحدثهم عن الإسلام والسيرة النبوية المطهرة ثم كانوا يطلبون من الزائر أن يسجل لهم على شريط بعضا من قصار السور التي يمكنهم الاستماع إليها وحفظها، وقد استمعت لتسجيلات جميلة ومؤثرة من بعض أخوتنا من مصر وسوريا الذين سبقوني بالزيارة لذلك المكان الطاهر ثم قمت بتسجيل سور الفاتحة والإخلاص والمعوذتين والكوثر.

بعد ذلك حانت صلاة المغرب فقام أحدهم ورفع الآذان ثم أقام الصلاة فطلب مني الأخ الباكستاني أن أصلي إماما فاعتذرت وفضلت

أن لا يصلي هو بل يتقدم إمامهم الراتب حيث يمكننا أن نلاحظ كيف يصلي الإمام الأمريكي وتقدم إمامهم وصلى بنا بعد تلاوة الفاتحة بسورة العصر ثم بسورة الإخلاص في الركعة الثانية وفي أثناء الركعة الثالثة انضم إلى الصف الثاني مسبوق وعند نهاية الصلاة لم يقم المسبوق ويكمل ما فاته من ركعات فسألته لم لم يكمل ما فاته من صلاة ولم يجب،وسألت الأخ الباكستاني والذي يتخذونه مرشدا فقال الباكستاني إن هذا المصلي انضم لهذه المجموعة قبل أيام قليلة ولن يفهم كيف يكمل الصلاة إلا بعد أن يتعود لعدة أيام.

ثم سألت الإمام الأمريكي لماذا صلى عدد من السيدات معنا في صف واحد فالمفروض أن يصلوا في صف منفرد خلف الرجال وهنا تدخل الباكستاني مرة أخرى وقال أن هؤلاء الفتيات كنا حتى وقت قريب يذهبن للكنيسة ويجلسن وسط الرجال ومن الأفضل أن يبقين في أثناء الصلاة في صفوف الرجال ثم شيئا فشيئا يمكن أن يقتنعن بوجوب صلاتهن خلف الصفوف، وزاد الأخ الباكستاني أن موضوع المسبوق الذي لم يقم بتكملة الصلاة وموضوع صلاة الفتيات مع الرجال في صف واحد يمكن معالجتها في نطاق رخصة المؤلفة قلوبهم وقال إذا حضرت لهذه المدينة بعد سنة مرة أخرى فستجد أن هؤلاء الشبان والشابات أكثر حرصا على تطبيق قواعد الإسلام كما تريدها الآن.

ثم انتقلنا إلى المضيفة حيث كانوا قد أعدوا لنا مأدبة كبيرة ظهر منها كرم أولئك الفتية ومن حديثهم واستفساراتهم اتضح لي رغبتهم الجامحة والأكيدة للتمسك بالإسلام.

ثم أدار أحدهم مؤشر التلفاز فقد حان موعد نشرة الأخبار، وكان من بين مواضيع الأخبار خبر عجيب يدور حول أحد الأثرياء العرب الذي جاء لولاية كاليفورنيا وتزوج بإحدى فاتنات هوليود ثم اشترى لها منزلا أثريا ذا طراز عمراني في غاية الجمال وظهر في شريط الأخبار الثري العربي وعروسته وهما يتجولان في المنزل ثم ظهرا وهم يراقبان العمال وهم يهدمون جزءا من المنزل مما يفقده الطابع الأثري الذي جعل الأمير يدفع عشرات الآلاف من الدولارات لشرائه وكان جيران المنزل يتفرجون وبعضهم يبكي لتشويه ذلك المنزل ، وقالت إحداهن للمذيع " إذا كان لابد من هدم المنزل فلماذا اشتراه بهذا السعر الخرافي".

كنا نشاهد هذا الشريط الأخباري ولا ندري ما نقول ثم سألني أحد المصلين ألسنا نحن المسلمين في هذه المدينة وفي أمريكا أحوج ما نكون لمساعدة هذا العربي وقد كان صادقا.

وفي نهاية الزيارة طلبوا مني إرسال مصحف باللغة الإنجليزية يحوي ترجمة لمعاني القرآن الكريم، وقد تحصلت على نسختين من المركز الإسلامي الأفريقي (جامعة أفريقيا العالمية) وأرسلتهما إليهم.

وأخيرا انتهى برنامجي للجولة حول تسع ولايات أمريكية حسب البرنامج الذي أعده المشرفون عليه في وزارة التجارة الأمريكية بالتنسيق مع الملحق التجاري الأمريكي بالخرطوم.

لقد زرت أثناء الرحلة بعض الشركات التي تستورد الصمغ العربي ورأيت الاستخدامات الصناعية للمصمغ وزرت شركات إنتاج المعدات الزراعية مثل كتيربلار وماسي فيرجسون وزرت مصنع لتجميع العربات في ديترويت ، وزرت مزارع تربية الأبقار والدواجن.

وفي واشنطون نظموا لنا زيارة لرئاسة البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وبنك الاحتياطي المركزي ومكتبة الكونجرس وهي أكبر مكتبة في العالم ويستطيع عضو الكونجرس الحصول على معلومة من أي بقعة في العالم بالرجوع لهذه المكتبة، وقد كان هذا قبل ظهور الأنترنت وثورة الاتصالات الأخيرة.

وقبل أن نمنح الإذن بالرجوع لبلادنا عقد اجتماع حضره مسئولون من وزارة الخارجية والتجارة وطلب من كل منا تقديم تقرير شفهي عن جولته وانطباعاته ومدى استفادته من تلك الجولة ويسمون هذا التقرير DE BREIFING وكان من الأشياء التي تأثرنا بها كأفارقة ضيوف على أمريكا أن أحد الزملاء بعد أن ابتدأ جولته حسب البرنامج الذي وضع له اختفى ولم يزر أي ولاية ولم يسمعوا عنه شيئا حتى موعد رجوعنا لبلادنا.

وقبل أن أغادر الولايات المتحدة توجهت لزيارة صديق لي في نيوهفن بالقرب من نيويورك وكان يكمل دراسته فوق الجامعية في جامعة ييل ووجدت معه أخ فاضل من أخوتنا في جنوب السودان وكان أيضا على وشك الرجوع للسودان بعد أن حصل على درجة البارستر في القانون.

لقد حكى لي صديقي أن الأخ بيتر كان نعم الأخ والجار والصديق فقد كان يحضر لهم عندما يتراكم الجليد ويمنع الناس من الخروج للشارع كان يحضر إليهم ويطلب منهم ما يريدون شراءه من السوق لأنه تمكن من الوصول للشارع رغم تراكم الثلوج، وكان يحضر لهم ما يريدون ثم يحلف أن لا يسترد ما دفعه.

وجاء مولانا بيتر في يوم وأنا ضيف مع الصديق الشمالي ثم سأل إن كان لديهم فطور فقامت ربة المنزل لتصنع له فطورا ولكنه أقسم أن يصنع الفطور بنفسه ودخل المطبخ ثم طبخ بيضا وأخرج من الثلاجة جبنة وزيتون ثم جاء وجلس يفطر ونحن نشرب الشاي. لقد كانت هذه القصة قبل ١٦ سنة وكان الشعور الأخوي الحميم متأصل في نفوسنا نحن السودانيين شماليين وجنوبيين ، وما أظن هذه الحادثة إلا مثال لما سمعته من كثير من إخواننا في المهجر في تعاملهم كسودانيين يؤمنون حقا بأن لا شمال بلا جنوب ولا جنوب بلا شمال.

وفي المساء ذهبنا في جولة إلى ميناء نيويورك والمدينة الشاهقة المباني والمكتظة بالسكان خصوصا الأمريكيين السود ومتاجر

اليهود والشوام وغيرهم من أجناس الدنيا.ثم زرنا مبنى الأمم المتحدة ومبنى مركز التجارة الدولي الذي انهار بفعل الضربات التي وجهت له في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م وبانهيار ذلك المبنى أنهار السلام العالمي فكانت الحرب في أفغانستان والعراق وازداد أوارها لدرجة مسح الأرض وما عليها في فلسطين، لقد كان يوم ١١ سبتمبر يوما فاصلا بين عهدين ولا يدري أحد متى يأتي السلام والاستقرار للعالم.

وفي نيويورك أيضا رأيت جماعة الفجور المعروفة بالـ GAYS وهم الشواذ من الرجال الذين يأتون بعضهم بعضا شهوة من دون النساء لا بل ومنهم مجموعة من الفتيات المصابات بنفس الداء داء السحاق. لقد أخذتني قدماي إلى باب النادي الصاخب حيث لا يسمح بالدخول إلا للأعضاء فقط ، وقد رأيت أشباه الرجال يتمايلون ويرقصون ويقبل بعضهم بعضا كان هذا في ساحة النادي بالطابق الأول، أما الطابق الثاني فقد كان كما علمت مخصصا للسيدات. وجاء أحدهم وسلمني جريدة مصورة خاصة بجمعيتهم المنكرة وكان الموضوع الرئيسي بالصفحة الأولى عن قضية أمام المحكمة يطالب فيها اثنان منهم بتبني أحد الأطفال لأسرتهم المكونة من رجلين إلا أن أحدهما هو الزوج والآخر الزوجة وكانت على صدر الصفحة صورة للزوجين والطفل بينهما وصورة الرجل الزوجة شبيهة حقا بصور النساء حيث تسريحة الشعر وأحمر الشفاة والمكياج على

الخدين. لقـــد شعرت بالدوار والاشمئـــزاز وأسرعت مبتعـــدا عـــن ذلك المكان قبل أن تخســـف به الأرض.

وفي ذلك المساء بدأت رحلة العـــودة إلـــى الســـودان التـــي استمرت لأكثر من عشر ساعات من نيويورك إلى القاهرة ومنها إلى الخرطـــوم. وبعد رجوعي للعمل بالسفارة كتبت تقريرا شـــاملا عـــن رحلة العمل لأمريكا وسلمته للملحق التجاري والذي أرسل منه صورة للمشـــرف على البرنامج في وزارة التجارة بواشنطن.

الفصل السابع : بوش الأب والإسلام الحديث :

في ١٩٨٤ وصل السودان نائب الرئيس الأمريكي آنذاك جورج بوش الأب وحضر معه وفد كبير من المساعدين والمسئولين الأمريكيين وقد استضافتهم الدولة ووضعت لهم برنامجا حافلا وانخرطوا في مفاوضات ووصلوا لنتائج لا أدري ما كنهها.

وقد دارت في المدينة أحاديث عن تلك الزيارة فمنهم من وصفها بأنها كانت لبث الروح في النظام الذي كان في حالة احتضار، ومنهم من قال أنه حضر لينصح الدولة بحركة مضادة تنخر في عظامها، ومنهم من وصفها برحلة استكشافية لهذا البلد الكبير والذي يذخر بإمكانيات هائلة وعلى رأسها النفط، فإذا كان النظام فعلا آئلا للسقوط فمن ذا الذي سيسطر على هذا البلد؟.

وكان نظام نميري قد تعاون بقدر كبير مع الولايات المتحدة وصل درجة المناورات العسكرية المشتركة فيما عرف حينئذ بعمليات النجم الساطع وهبوط طائرات الـ AWAX بمطار الخرطوم كما هو معروف للجميع.

إن وظيفتي بالسفارة الأمريكية بالخرطوم كانت في مكتب الملحق التجاري وطبيعة عملي محددة في ذلك الإطار فلم يكن في مقدوري أن أتطلع على أسرار العمل السياسي، ولم يكن لأي سوداني بالسفارة حق الإطلاع على مثل تلك الأمور وعليه فإن تناولي لموضوع زيارة بوش لا يزيد على مستوى التخمينات أو الاستنتاجات.

وبعد انتهاء الزيارة تأخر عدد من مرافقي بوش بالسودان لمواصلة مهام مكلفين بها ثم غادروا الخرطوم بعد أيام.

المعروف أن النميري قام باعتقال المجموعة الإسلامية التي انضمت للاتحاد الاشتراكي منذ سنة ١٩٧٧ وقيل أنه كان يعلم جيدا أنهم كانوا بالصبح تلاميذا وبعد الظهر نجارين حيث كانوا ينجرون مركب نوح. فهل كان اعتقالهم لخطر داهم أحث به؟ هل كان إبعادهم بنصيحة من الأمريكان؟ أم أن إبعادهم سواء كان بإيعاز أو تحوطا من خطر قادم كان في النهاية إنقاذا لهم حيث باتا بعيدين عن البناء عندما أنهار السقف عليه بقوة الانتفاضة.

ولقد سمعت في تلك الأيام رواية بأن أحد المسئولين الأمريكيين همس لبعض أصدقائه السودانيين بأن مستر بوش قد انبهر وأعجب غاية الإعجاب (HIGHLY IMPRESSED) بتحليل قدمه قائد إسلامي ذو مكانة عظيمة مشهود له بالذكاء والتفكير المرتب حيث أن تحليله السياسي كان منصبا على دور الإسلام في السياسة في العصر الحديث، وقد صنف المحلل التوجهات الإسلامية في العالم إلى ثلاثة مدارس، الأولى هي مدرسة الخميني وما تفرع منها كحزب الله في لبنان وهو اتجاه ثوري مصادم وتيار آخر جامد ليس له تأثير خارج نطاقه كما في الممالك المعاصرة، وتيار ثالث معتدل Pragmatic ويعمل من أجل المعاصرة ولا ينفك عن الأصالة وأن المنتظمين في هذا الكيان من الذين تلقوا تعليما عاليا في جامعات أوربا وأمريكا بدون

أن يفقدوا جذورهم الضاربة في أعماق الأصول الإسلامية. وحسب هذه الرواية فإن نائب الرئيس بوش أعجب بهذه الوسطية وأمن على أنهم ضد التطرف وضد التجمد في نفس الوقت، وما حدث بعد ذلك معلوم ومفهوم.

خاتمـــــة :

بعد أكثر من ستين عاما عشتها طفـــلا وشــابا وكــهلا فـــي الخرطوم فإن خواطري وذكرياتي تظل ملكا لي وربما قال قارئ لـهذه المطبوعة إذا لماذا يقحمنا هذا الإنسان في تجاربه الشخصية وما أظنــه إلا محقا لولا أن كثيرا من الكتابات هي تجـــارب شـــخصية لكاتبيـــها ولكنها ذات أثر وتأثير على الحياة ولأن التجارب الخاصة في مجملــها هي الحياة العامة بعينها.

فذكرياتي عن الخرطوم أيام زمان تعكس نمطـــا من الحيـاة يجهله كثير من الأجيال الحديثة، وقـــد حرصـــت أن أركـــز علـــى تجارب إنسانية وتاريخية ذات مدلول معرفي مفيد.

لقـــد أكدت في مقدمة هذا الكتاب أن المقصـــود ليـــس هـــو توثيـــق أو تسجيـــل للتاريخ وعلـــى هذا الفهم آمــــــل أن يتقبلــه القارئ الكريم.

إن الشعب السوداني الأصيل ظل في جوهره كما هـــو شـــهما كريما مترابطا لم يتأثر كثيرا بالجهوية أو القبلية أو الحزبيـــة، ففـــي مجتمع المدينة كالخرطوم ظلت كل هذه المظاهر السالبة تنصهر فـــي بوتقة التآلف والتعاون نجد ذلك في المناسبات الاجتماعية من أفـــراح وأتراح وأعياد واحتفالات.وحتى في أيام الانتخابات فما الذي جد حتـــى

حدث ما نراه الآن ونعايشه مما يقلب الأوضاع الجميلة التي سعدنا بها في عشرات السنين؟

لقد قاوم السودانيون متحدون الاستعمار بطريقتهم الفريدة حتى حققوا الاستقلال بدون إراقة دماء وحتى الانقسامات والصعوبات التي واجهتهم بعد الاستقلال كانت بسبب طموحات التيارات الصغيرة والتي كانت تطمع لما هو أكبر من وزنها وهي تعلم أنها لا يمكن أن تسيطر على البلاد إلا عن طريق الانقلابات لا عن طريقة التصالح أو الاحتكام للشعب مثل ما حدث في سنة ١٩٥٦ و ١٩٦٥ و ١٩٨٦ فالذي حدث في ١٩٥٨ و ١٩٦٩ و ١٩٨٩ هو القفز فوق المراحل بتوهمهم أن المجتمع السوداني التقليدي لن يواكب مستجدات العصر وأن الانقلابات هي أقرب الطرق للتطور ولكن الذي حدث أن الانقلابات أرجعتنا عشرات السنين إلى الوراء.

لقد طغت على الحياة السودانية هذه الجوانب السياسية التحكمية السالبة والتي حرصت في الكتاب أن ابتعد عنها لأركز على الجوانب الاجتماعية الإنسانية الموجبة، ولكن ومهما يكن فإن الحياة هي تلاقي الموجب مع السالب.

جاشت هذه الخواطر بذهني وأنا أعبر محطة السكة جديد بالخرطوم على أقدامي قبل مدة قصيرة وصفير الريح يأتي من داخل الورش التي عشعشت فيها الوطاويط ، وأمام مكتب الناظر الذي بنى

عليه العنكبوت تدلى جرس أخرس والقضبان الحديدية دفنتها الريـــاح فأين ذلك من ذلك اليوم الذي عدنا فيه من البلد للخرطـــوم واســـتقبلنا الوالد والمحطة تموج بالقادمين والمستقبلين وأصحاب عربات الأجـــرة يصيحـــون بحري – الديم- أم درمان. أيـــن أريـــج البلـــح الرطـــب والسمن؟ أين هذا من بسمات المستقبلين ودموع الواصلين:

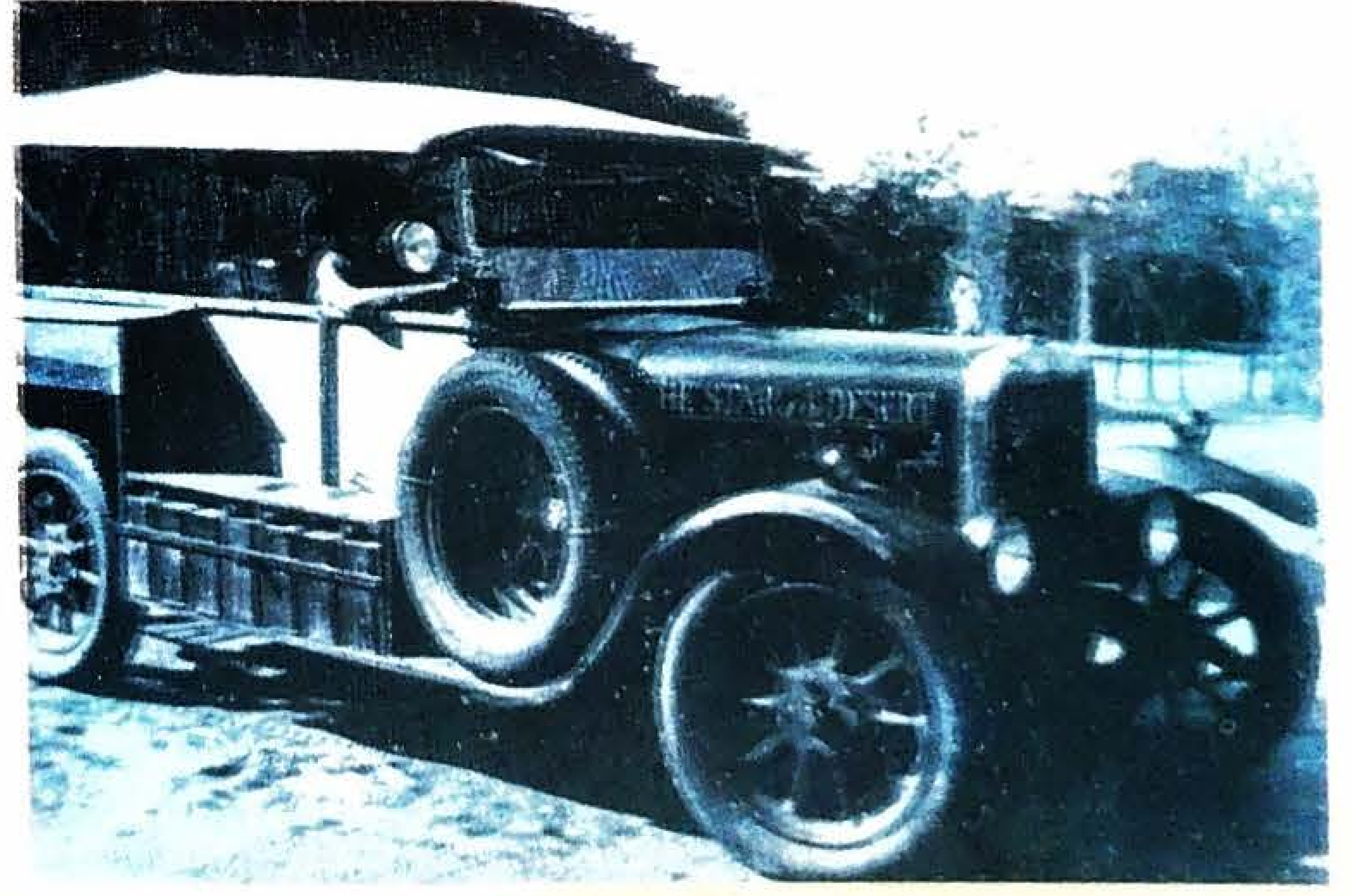
أبن من عيني هاتيك المجال ** يا عروس البحر يا حلم الخيال

انتهى،،،

السيرة الذاتية

الاسم : أحمد عبد الوهاب محمد سعيد.
الميلاد : الخرطوم ١٩٣٥م.
مراحل التعليم :
الديم شرق الأولية - الكلية القبطية بالخرطوم حتى نهاية المرحلة الثانوية ١٩٥٥م.
شهادات أخرى :
أ- دبلوم غرفة لندن التجارية فى إدارة الاعمال ١٩٥٩م.
ب- شهادة معهد الدراسات الخارجية - وزارة الخارجية الامريكية - واشنطن ١٩٧٩م.
ج- شهادة المصرف الإسلامى الدولى للإستثمار والتنمية فى نظم المعلومات المتطورة لإدارة المصارف الإسلامية - القاهرة ١٩٨٥م.
الخبرات :
أ- ١٩٦٠م مدير إدارة التوكيلات بشركة متشكل كوتس وشركاه - الخرطوم
ب- ١٩٨٠م مساعد الملحق التجارى الامريكى - السفارة الامريكية - الخرطوم
ج- ١٩٨٥م مدير إدارة البحوث والمعلومات - البنك الإسلامى السودانى
د- ١٩٩٠م المدير التنفيذى - الهيئة الوطنية للإغاثة - الخرطوم
هـ- ١٩٩٩م رئيس مجلس الإدارة والمدير العام - معهد المنهل للتدريب والتأهيل - الخرطوم.
العنوان :
منزل رقم ٢٦ مربع (٦) حي الزهور الخرطوم
تلفون: ٤٦٧٨٢٤ - جوال ٠٩١٢١٤١٥٦٢





رقم الإيداع:(٥٦٨/ ٢٠٠٤)

تصميم الغلاف : ادفرتايزر قرافكس